الأخوّة الدعوية

في نماذجها المشرقة

د.محمود فؤاد الطباخ

دار الأعلام

الأخوّة الدعوية

في نماذجها المشرقة

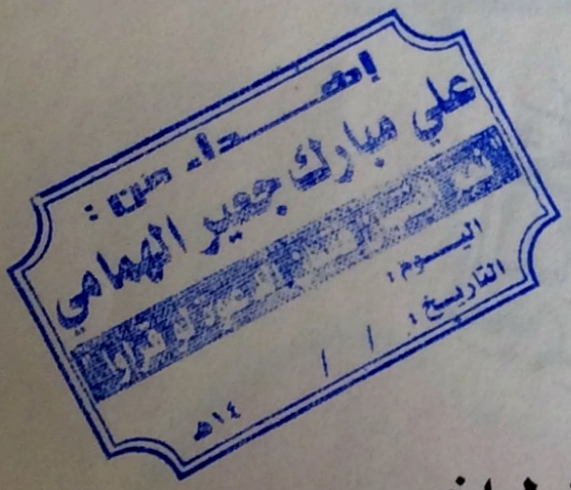

د.محمود فؤاد الطباخ

دار الأعلام

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، مشيِّد صرح الأخوّة بين كل الداعين في مجتمع المؤمنين ، على الخير والهدى والحق المبين ، القائل في محكم كتابه : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾(١)

والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، أفضل راعٍ للصفوة المختارة من المسلمين بكل الود والعطف والرحمة واللين ، الذي نعته ربه بقوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾(٢)

والرضا عن الصحابة من الأنصار والمهاجرين ، ومن سار على نهجهم من الدعاة المخلصين ، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين ، الذين قال الله في أخوتهم ومحبتهم وإيثارهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(٣)

وبعد : فإني أحببت أن أتوجه إلى أمة الإيمان في كل زمان ومكان ،

---

(١) من سورة الأنفال : (الآية / ٦٣)

(٢) من سورة آل عمران : (الآية / ١٥٩)

(٣) من سورة الحشر : (الآية / ٩)

عبر رجالاتها من أبناء دعوتها ، ليحققوا في أنفسهم قبل غيرهم ، أخوة صادقة ، تسهم في تحقيق آمال الأمة وتطلعاتها ، بما توفره من وحدة شاملة تقوم على الإخاء والوداد ، وذلك بعد استعراض نماذج مشرقة لتلك الأخوة الدعوية ، كي يتم تمثلها والاقتداء بها ، فيذهب عن الأمة وهنها وحزنها ، وتتخلص من شتاتها وحيرتها ، وتتحرر من كل تسلط بغيض عليها وعلى خيراتها ، لتعود إليها عزتها ورفعتها ، ما دامت مستمسكة بإيمانها وأخوّتها .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾(١)

وقال سبحانه : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾(٢)

إن شعور أمة الإيمان بأنها جسد واحد بكل أفرادها وجماعاتها ، وبخاصة أبناء الدعوة فيها ، هو الشعور الأصيل الذي تملكها عبر تاريخها الطويل ، انطلاقاً من إيمانها الراسخ الذي تَمكَّن فيها ، نجعل منها أمةً متآلفة عزيزة الجانب موفورة الكرامة .

وإذا كانت الأخوة بين المؤمنين بعامة قد تم الحديث عنها في كتابي الثامن في هذه السلسلة وهو : « سبعون حقاً للأخوة » فإن هذا الكتاب الجديد سوف يبرز نماذج متميزة لكل من استشعر في هذه الأمة قول الله سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ

---

(١) من سورة آل عمران : (الآية / ١٣٩)

(٢) من سورة النساء : (الآية / ١٤١)

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[1]

كما يوضح للنخبة المختارة من الداعين أنَّ عليهم أن يكونوا قبل غيرهم إخوةً متحابين متآلفين متعاونين ، كأنهم الأزاهير والورود والرياحين التي تفوح بأزكى روائح المسك والياسمين ، ليسعد بهم كل من استجاب لدعوتهم من الناس أجمعين .

جاء في كتاب « مع الله » : (إن لهذه الأخوة الإسلامية المشتركة فيما بين المسلمين حقوقاً متشعبة النواحي ، وواجبات متعددة المظاهر والمقاصد .

ولو أن هذه الحقوق والواجبات أحصيت ودرست ، ونظمت ، واتخذ العقلاء الرحماء من قادة المسلمين وسائل لبعث الحيوية فيها وفي أهلها ، إلى أن يتم توجيههم في طريق العمل الإنساني ، والبعث الإسلامي ولو بالتدرج ، لكان من ذلك العمل الكبير أعظم حادث في تاريخ الإنسانية بعد حادث القيام الأول للإسلام .)[2]

ولما كان العلماء العاملون ، والدعاة المخلصون أمل هذه الأمة ومحط أنظارها ، لأنهم القادة الطبيعيون لها ، فإنه يتعين عليهم أن تكون سيرتهم صافية الوداد فيما بينهم ، وأن يكونوا على أرقى درجات المحبة والتضحية والإيثار ، ليكونوا قدوة صالحة لمن وراءهم ، ممن ينتمي إليهم أو يقر بفضلهم .

جاء في كتاب « إحياء علوم الدين » : (روْني أنه سُعِي بجماعة من

---

(١) من سورة فصلت : (الآيات / ٣٣ ـ ٣٥) .

(٢) محمد الغزالي / ٢٢٧ ، ط دار القلم ـ دمشق ، ت ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م .

العلمـاء إلى بعـض الخلفـاء ، فـأمر بضـرب رقابـهم ، وفيـهم أبـو الحسـين النوري ، فبادر إلى السياف ، ليكون هو أول مقتول ، فقيل له في ذلـك ، فقال أحببت أن أوثر إخواني بالحياة في هذه اللحظة ، فكان ذلـك سـبب نجاة جميعهم .)[1]

ولا يفوتنـا هنـا أن نذكـر بـأن التحـاب والأخـوَّة في الله مـن أرقـى العبادات لله سبحانه ، فكيف بها إذا كانت بين خيرة هذه الأمـة ودعاتـها العاملين المخلصين ؟ !

في الحديث الشريف : « قال لنا رسول الله ﷺ : قد علمت أن أقواماً ليسوا بأنبياء ولا بشهداء يغبطهم الأنبيـاء والشـهداء بمكانـهم مـن الله ، فقـام رجل من حَجْرَةِ[2] القوم أعرابي ـ وكان يعجبنـا إذا شـهدنا رسـول الله ﷺ أن يكون فينـا الأعـراب ، لأنـهم يجـترئون أن يسـألوا رسـول الله ﷺ ولا نجترئ ـ فقال : يا رسول سَمِّهِمْ لنا ، قـال : فرأينـا رسـول الله ﷺ يتـهلل ، ثم قال : هم ناس من قبائل شـتى يتحـابون في الله ، إن وجوهـهم لنـور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزنوا . »[3]

كما لا يفوتنا أن نذكر بأن نفع الأخـوة بـين المؤمنـين وبخاصـة منـهم الداعين ، يمتد ليصل خيره إلى أبناء الإنسـانية أجمعـين ، حـين تمتـد ظـلال الإسلام الوارفة في العالمين .

جاء في كتاب : « الحب والأخوة في الله » : (فكان للأخوَّة الإسلاميـة

---

(١) الإمام أبو حامد الغزالي : (ج١ / ١٥٢ ، ١٥٣) .

(٢) حَجْرَةُ القوم : ناصيتهم ، والجمع حَجْرٌ ، مثل جمرة وجمر . النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثـير : (ج١ / ٣٤٣) .

(٣) رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير حوشب ، وقد وثقه غير واحد ، مجمع الزوائد : (ج١ / ٢٨٠).

الأثر الكبير والعامل القوي في وصول الأمة الإسلامية إلى قمة المجد والسيادة ، وفي امتلاكها مفاتيح العلم والحضارة ... ويومها كانت أوربا ترسف في أغلال الجهل وتتطلع إلى حضارة الإسلام ، وترسل أبناءها إلى الجامعات الإسلامية في الأندلس وفي المشرق الإسلامي .)[1]

وجاء في رسالة « كيف السبيل إلى وحدة الأمة الإسلامية » : (إنه لا توجد نظرية لا في القديم ولا في الحديث توحد الإنسانية ، وتصلح أساساً للدولة العالمية إلانظرية الإسلام والإسلام فقط .

هذه هي المنهجية الوحيدة التي باستطاعتها أن تجمع بين الناس جميعاً ، وتجعل منهم عائلة واحدة ، يتكون منها مجتمع عائلي ، وتنشأ عليها دولة عالمية ، ولا يمكن للإنسان أن يلتقي مع أخيه على صعيد واحد ، وينشئ معه علاقات أخوية إلا حينما يشعر في قرارة نفسه بأن الله الواحد هو الذي خلقه ، وبأنه مسؤول أمامه ، وهو خالقه وخالق الناس جميعاً ، وربه ورب الناس كافة .)[2]

من هنا فقد صار الحديث عن الأخوَّة الدعوية ضرورة ملحة ، لأنه يوحِّد الأمة ، ويبعث على الألفة والمودة فيها ، ويقضي على كل السلبيات التي ظهرت ولم يعد هناك مجال لاحتمالها أو السكوت عليها ، من مثل :

١ ــ سيطرة اليأس على نفوس كثير من أبناء الأمة وبخاصة الدعاة فيهم .

٢ ــ ظهور فتنة توظيف بعض النصوص ، أو لَيِّ عنقها إرضاء للأهواء .

٣ ــ عجز كثير من القيادات التقليدية في كثير من البلدان عن تحقيق آمال الأمة ، لأنها لا تمتلك خبرة كافية ولا تخصصاً في القضايا العامة .

---

(١) حسني أدهم جرار / ٧٨ ، ٧٩ . ط شركة الشرق الأوسط ــ عمان ، ت ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م .

(٢) أبو الأعلى المودودي / ١٩ .

٤ ــ عجز كثير من القيادات التنظيمية في كثير من البلدان الإسلامية عن الوصول إلى مراكز القيادة ، لأنها لا تمتلك رؤية واضحة تتناسب مع تطورات العصر وتقنياته الحديثة ، مقارنة بأهل السياسة من أقرانهم .

٥ ــ عجز أصحاب التخصصات الدقيقة عن تحقيق آمال الأمة ، لانشغالهم بالبحوث التخصصية ، مع أنهم جزء مهم من أهل الحل والعقد .

٦ ــ تمسك بعضهم بالأسماء والألقاب التي أخفقت ، وباللافتات التي احترقت ، دون مواكبة التغييرات والمستجدات التي لم يعد بالإمكان تجاهلها .

٧ ــ ظهور الدعوة إلى لمّ الشمل عند بعضهم ، لكن دون التخلص من نغمة التكفير أو التأثيم أو الاتهام لمن يخالفهم الرأي ، فأخفقوا كغيرهم .

٨ ــ ظهور التعصب البغيض ، وانغلاق كل جماعة على نفسها ، والاكتفاء بالانتماء .

٩ ــ ظهور فتنة التقزيم لأصحاب المواهب ، والتنويم لأهل التطلعات المشرقة ، والتعتيم على أصحاب الآراء الصائبة التي ربما تصدر عن عقول شابة متفتحة .

١٠ ــ ظهور فكرة الذوبان في المجتمعات التي يعيش بعض الدعاة على أرضها ناسين أو متناسين إخوانهم الذين من أجلهم فتنوا ، وقضيتهم التي من أجلها خرجوا ، وفي سبيلها امتُحنوا .

هذا وقد جعلت الموضوع بعد هذه المقدمة يقوم على ثلاثة فصول وخاتمة

الفصل الأول : نماذج من الأخوة الدعوية في عهد النبي ﷺ .

الفصل الثاني : نماذج من الأخوة الدعوية في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم رضي الله عنهم .

الفصل الثالث : الأخوة الدعوية تثير قضية أهل الحل والعقد .

نداء وخاتمة : تشمل أهم النتائج .

الفصل الأول

نماذج من الأخوة الدعوية في عهد النبي ﷺ

لقد سجل الرعيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ صفحات مشرقة عبرت عن أرقى النماذج الأخوية ، وبخاصة في ميدان الدعوة إلى الله عز وجل ، وإن كانت كل النماذج الأخوية المتمثلة في عيادة المريض مثلاً ، وفي إغاثة الملهوف ، وإعانة المنكوب ، ونصرة المظلوم ، وقضاء حاجة المضطر ، وغيرها . كل هذه النماذج لا تعدو في حقيقتها أن تكون بعد التأمل نماذج دعوية ، لأنها تؤلف بين قلوب الدعاة ، وتحبب المدعوِّين إلى من يدعوهم كذلك . لكن هذه النماذج من الأخوة في إطارها العام سبقت دراستها في كتاب مستقل بعنوان « سبعون حقاً للأخوة » .

إلا أن النماذج التي سوف أقف عندها في هذا الكتاب هي نماذج لأخوة دعوية خالصة ، تعبر عن أرقى معاني الأخوة الدعوية ، سواء أكان ذلك بين الداعين أنفسهم ، أو كان بين الدعاة والمدعوِّين ، وذلك كي تبرز لدعاة اليوم أهمية تلك الحقيقة ، فيكون لها أثرها في نمو تلك الروح الأخوية الدعوية .

خديجة رضي الله عنها

ويتمثل هذا النموذج في موقف الزوجة الداعية المؤمنة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها من زوجها إمام الدعاة وقائدهم ﷺ ، حيث كان لها الفضل في تثبيته على الحق ، ومضيه في طريقه منذ بداية الطريق ، لأن الداعية لا يمكن أن يكتب له النجاح في دعوته إذا كانت الزوجة في بيت الزوجية تدير ظهرها للدعوة ، ولا تعرف لزوجها حقاً من حقوق الأخوة

الدعوية التي يجب أن تنشأ بين الزوجين أولاً ، ليكون البيت الـذي ينطلـق منه الداعية بيت دعوة ، والأخـوة الدعويـة تـأخذ أبعادهـا فيـه . ليتمكـن الداعية من نقل دعوته إلى بيوت الآخرين ، وإلى كل تجمعاتهم البشـرية ، وهو واثق الخطو ، ثابت القلب ، مطمئن النفس .

فهذه خديجة رضي الله عنها ، حين رجع إليها رسول الله ﷺ يرتجـف فؤاده ، وقد نزل عليه الوحي في غار حراء تطمئنه وتثبته ، كـما جـاء في « سيرة ابن هشام » : (فقالت : يا أبا القاسـم ، أيـن كنـت ؟ فـوالله لقـد بعثت رسلي في طلبك ، حتى بلغوا مكة ورجعوا لي ، ثم حدثتـها بـالذي رأيت ، فقالت : أبشر يا بن عم واثبت فوالـذي نفـس خديجـة بيـده إنـي لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة .)[1]

ثم إنها رضي الله عنها لم تكتف بهذا التثبيت في كلماتها المؤثـرة ، وإنمـا بادرت لتتبع القول بالفعل ، لتعبر عن أسمى آيات الأخـوة الدعويـة ، والوفـاء للحياة الزوجية ، فنهضت من فورها إلى ابن عمـها ورقـة بـن نوفـل ، لتجـد الخبر اليقين عنده ، كي يتمكن الرسول ﷺ من الدعوة بكل الثقة والثبات .

جاء في « سيرة ابن هشام » : (ثم قـامت فجمعـت عليـها ثيابـها ثـم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العـزى بـن قصـي ، وهـو ابـن عمها ، وكان ورقة قـد تنصـر ، وقـرأ الكتـب ، وسمـع مـن أهـل التـوراة والإنجيل : فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ ، أنـه رأى وسمـع ، فقـال

---

(١) سيرة ابن هشام : (ج١ / ٢٢١) ، المطبعة الفنية للطبع والنشر والتجليد ، القاهرة تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد . بدون تاريخ ، وانظر خلاصة سير سيد البشر ص : (ج١ / ٢٤٨ ــ ٢٥٣) ، لمحب الدين الطبري ، تحقيق د . زهير الخالد ، ودراسة في السيرة / ٦٠ ، للدكتور عماد الدين خليل .

ورقة بن نوفل : قدوس قدوس ، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولي له فليثبت . فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة بن نوفل .)[1]

وهكذا تتجلى الأخوة الدعوية بين الزوج وزوجه في هذا البيت النبوي ، ليكون لهذا أثره البالغ في بيوتات كل الدعاة ، إذا أرادوا لدعوتهم أن تنطلق ، ويكتب لها التوفيق والنجاح .

عثمان بن مظعون رضي الله عنه

كان عثمان بن مظعون رضي الله عنه في جوار الوليد بن المغيرة يغدو في أمان ، ويروح في أمان ، ويؤدي شعائر دينه في أمان .

لكنه عز عليه أن ينفرد بهذا الأمان دون سائر إخوانه من أهل الإيمان ، ورأى أن عليه أن يشاركهم دعوتهم ويتحمل همومها وأعباءها وتكاليفها .

جاء في « سيرة ابن هشام » : (لما رأى عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء ، وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد ابن المغيرة ، قال : « والله إن غدوي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني ، لنقص كبير في نفسي . فمشى إلى الوليد بن المغيرة ، فقال له يا أبا عبد شمس وفّت ذمتك ، قد رَدَدْتَ إليك جوارك ، فقال يا بن أخي لعله آذاك أحد من قومي ؟ قال : لا ، ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره . . . ثم انصرف عثمان ، ولبيد بن ربيعة في مجلس من

---

(١) سيرة ابن هشام : (ج١ / ٢٢٢) ، وانظر السيرة النبوية / ١١٨ ، لأبي الحسن الندوي .

قريش ينشدهم ، فجلس معهم عثمان ، فقال لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل ، قال عثمان : صدقت ، قال لبيد : وكل نعيم لا محالة زائل ، قال عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول . قال لبيد بن ربيعة : يا معشر قريش ، والله ما كان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم ؟ فقال رجل من القوم : إن هذا سفيه في سفهاء معه ، قد فارقوا ديننا ، فلا تجدن في نفسك من قوله ، فرد عليه عثمان حتى شرى أمرهما ـ أي كثر وزاد ـ فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخضرها والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان فقال : أما والله يا ابن أخي كانت عينك عما أصابها لغنية . قال : يقول عثمان : بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله ، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس . فقال له الوليد : هلمَّ يا بن أخي إن شئت فعد إلى جوارك ، فقال : لا .)[1]

وهكذا يضرب عثمان بن مظعون رضي الله عنه أروع الأمثلة في أخوة دعوية نادرة تدفعه أن يشارك إخوانه في كل ما يلاقونه من البلاء ، وإن كان الله سبحانه قد هيأ له من يحميه ويدفع عنه .

أبو بكر رضي الله عنه

كان أبو بكر رضي الله عنه في جوار ابن الدُّغُنَّة في أمان ، ويتلو ما يحلو له من القرآن في أمان ، فيرق لذلك العبيدُ والنساءُ والصبيانُ ، وهي دعوة إلى الله عز وجل يطمئن إليها قلبه وتسكن لها نفسه ، حيث يؤدي بعض حقوق أخوة الإيمان .

---

(١) سيرة ابن هشام : (ج٢ / ١٤ ، ١٥)

لكن هذه الدعوة أفزعت الكفر وأهله ، فهرعوا لإيقاف هذا المد المتنامي ، وطلبوا من ابن الدُّغُنَّة أن يمنعه من هذا العطاء ، وأن يأمره بالاستتار ففعل ، لكن الصحابي الجليل رفض هذا العرض ، وآثر رد الجوار على ابن الدغنة وهو يعلم تكاليف ذلك ، إلا أنه كان يحس أن إخوانه الذين يعذبون في سبيل الله ليسوا أقل شأناً منه ، فلا بد إذن من مشاركتهم آلامهم ومحنتهم ، لتكون الأخوة الدعوية صادقة ومعبرة .

جاء في كتاب « حلية الأولياء » : (عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما أنفدت قريش جوار ابن الدغنة قالوا له : مُرْ أبا بكر فليعبد ربه في داره . وليصل فيها ما شاء وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا ولا يستعلن بالصلاة والقراءة في غير داره . قال : ففعل أبو بكر رضي الله عنه ، ثم بدا له فابتنى مسجداً بفناء داره . فكان يصلي فيه ويقرأ . فتتقصف[1] عليه نساء المشركين وأبناؤهم يتعجبون منه ، وينظرون إليه . وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً بكاء لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن ، فأفزع ذلك أشراف قريش ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال : يا أبا بكر قد علمت الذي عقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع إليَّ ذمتي ، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في عقد رجل عقدت له . فقال أبو بكر : فإني أرد إليك جوارك ، وأرضى بجوار الله ورسوله . ورسول الله ﷺ يومئذ بمكة .)[2]

---

(١) تتقصف : أي تزدحم عليه .

(٢) أبو نعيم الأصفهاني : (ج١ / ٣٥ ، ٣٦) ، وانظر سيرة ابن هشام : (ج٢ / ١٦ ، ١٧) ، وانظر السيرة الحلبية : (ج١ / ٣٠١) ، للإمام علي برهان الدين الحلبي ، ط دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

وهكذا يقف الصحابي الجليل رضي الله عنه في خندق واحد مع كل المعذبين من إخوانه وأبناء دعوته ، حتى إذا وجد فرصة لتخفيف الأذى عن أحد إخوانه لم يوفرها ، وبذل ماله رخيصاً في سبيل ذلك ، ليضرب أروع الأمثلة في أخوة دعوية رائدة .

جاء في « سيرة ابن هشام » : (وكان بلال ، مولى أبي بكر رضي الله عنهما ، لبعض بني جمح . . وكان صادق الإسلام طاهر القلب ، وكان أمية بن وهب بن حذافة بن جمح يخرجه إذا حميت الظهيرة في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى ؛ فيقول وهو في ذلك البلاء : أحد أحد . . . حتى مر به أبو بكر الصديق ابن أبي قحافة رضي الله عنه يوماً ، وهم يصنعون ذلك به ، وكانت دار أبي بكر في بني جمح ، فقال لأمية بن خلف : ألا تتقي الله في هذا المسكين ؟ حتى متى ؟ ! قال : أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى ، فقال أبو بكر : أفعل ، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى ، على دينك ، أعطيكه به ؛ قال : قد قبلت . فقال : هو لك . فأعطاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه غلامه ذلك ، وأخذه فأعتقه .)[1]

وتبلغ الأخوة الدعوية عند أبي بكر رضي الله عنه مداها ، حيث يستمر في تخليص أبناء دعوته من التعذيب والتنكيل لشعوره بآلامهم ومحنتهم ، وبخاصة منهم الضعفاء الذين هم أحوج ما يكونون إلى هذه الأخوة الدعوية الصادقة من غيرهم . حتى إن أبا قحافة والده عاتبه في ذلك فقال

---

(١)سيرة ابن هشام : (ج١ / ٢٧٧ ، ٢٧٨)

له : (يا بني إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً ، فلو أنك إذا فعلت أعتقت رجالاً جلداً يمنعونك ويقومون دونك ؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا أبت ، إني إنما أريد ما أريد لله عز وجل . قال : فيتحدث أنه ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيه ، وفيما قال له أبوه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ ﴾[1] . . . إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝ ﴾[2])[3]

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

إنه عمر بن الخطاب الفاروق رضي الله عنه الذي لم تطب نفسه أن يكون في أمان كذلك ، وإخوانه من أبناء دعوته يلاقون الظلم والقهر والتعذيب ، لأن معاني الأخوة الدعوية حين تنمو بنمو الإيمان ، فإنها تجعل من المؤمنين جسداً واحداً في السراء وفي الضراء على حد سواء ، إذ لا يعقل أن ينزل البلاء في عضو من أعضاء الجسد ، دون أن يذوق الجسد كله ما يلاقيه هذا العضو ويكابده ، فيتألم لألمه ، ويتوجع لمصابه ، وهذه أعلى درجات الأخوة .

جاء في « تهذيب الأسماء واللغات » في ترجمة عمر رضي الله عنه : (. . . فأوقع الله تعالى في قلبه الإسلام فأسلم ، ثم جاء إلى النبي ﷺ وهم مختفون في دار عند الصفا ، فأظهر إسلامه ، فكبر المسلمون فرحاً بإسلامه ، ثم خرج إلى مجامع قريش ، فنادى بإسلامه ، وضربه جماعة منهم وضاربهم ،

---

(١) من سورة الليل : (الآيتان / ٥ ، ٦)

(٢) من سورة الليل : (الآيات / ١٩ ـ ٢١)

(٣) سيرة ابن هشام : (ج١ / ٢٢٨ ، ٢٢٩)

فأجاره خاله[1] ، فكفوا عنه ، ثم لم تطب نفس عمر حين رأى المسلمين يعذبون وهو لا يضرب في الله ، فردَّ جواره ، فكان يضاربهم ويضاربونه إلى أن أظهر الله تعالى الإسلام .)[2]

وهكذا فإن نفس عمر الفاروق رضي الله عنه لا تطمئن إلى الراحة والهدوء بجوار خاله في وقت يتعرض فيه إخوانه في الله إلى أشد ألوان العذاب ، فيرد الجوار ليشارك إخوانه من أبناء دعوته بكل ما يلاقونه من شدة وبلاء ، ليعبر عن صدق إيمانه ، وعظيم الوفاء بحقوق الأخوة الدعوية لإخوانه .

أم سليم رضي الله عنها

والنموذج الآن يتمثل في الصحابية الجليلة أم سليم رضي الله عنها التي بلغ من وفائها لأخوتها الدعوية أن تتخلى عن مهرها ، حقها من زوجها إن هو دخل في دين الله ، فصار أخاً في الله ، ليكون صداقها منه إيمانه فقط ، فهي لا تريد منه غيره ، وذلك حتى تكون قدوة صالحة لكل بنات جنسها من أمة الإيمان ، في إعطاء صورة ناطقة وواقعية ، يرسمها الصدق في الأخوة الدعوية ، وقد عرضت دعوتها بمنتهى الحكمة والبراعة .

جاء في كتاب « طبقات ابن سعد » : (عن أنس رضي الله عنه قال : جاء أبو طلحة يخطب أم سليم ، فقالت : إنه لا ينبغي لي أن أتزوج مشركاً ، أما تعلم يا أبا طلحة أن آلهتكم التي تعبدون ينحتها عبد آل فلان النجار ،

---

(١) خاله هو أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة ، لأن أم عمر هي حنتمة بنت هشام بن المغيرة . انظر سيرة ابن هشام : (ج١ / ٢٩٩) والإصابة لابن حجر : (ج٤ / ٢٧٩) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبق النسخة المطبوعة سنة ١٨٥٣ م في بلدة كلكتا .

(٢) الإمام النووي : (ج٢ / ٤)

وأنكم لو شعلتم فيها ناراً لاحترقت ؟ قال: فانصرف عنها ، وقد وقع من ذلك موقعاً . قال : وجعل لا يجيئها يوماً إلا قالت له ذلك . قال: فأتاها يوماً فقال : الذي عرضتِ عليَّ قد قبلتُ . قال : فما كان لها مهر إلا إسلام أبي طلحة .)[1]

زيد بن الدثنة رضي الله عنه

ويتمثل هذا النموذج في أرقى معاني الأخوة الدعوية التي نمت حتى بلغت أعلى مستوى لها ، وهي تتوجه إلى صاحب هذه الدعوة ﷺ ، فإذا بها تدفع صاحبها ، ليقدم روحه رخيصة دون رسول الله ﷺ ، معبراً عن أصدق آيات الأخوة الدعوية ، وقد تمثل ذلك في الصحابي الجليل زيد ابن الدثنة الذي لم يرض أن يصاب صاحب دعوته بشوكة تؤذيه ، ولو كان في ذلك إطلاق سراحه ، ونجاته من القتل المحتم ، ووصوله إلى أهله ليكون عندهم آمناً مطمئناً ، لأن الوفاء الصادق لإخوة الإيمان ، ولصاحب الدعوة ، أن يبقى صاحب الرسالة في أمان ، ليستمر الخير والعطاء المتجدد لكل أبناء الإيمان .جاء في « سيرة ابن هشام » : (قال ابن إسحاق وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف ، وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له ، يقال له : نِسطاس إلى التنعيم ، وأخرجوه من الحرام ليقتلوه ، واجتمع رهط من قريش ، فيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل : أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه ، وأنك في أهلك ؟ قال : والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأني

---

(١) طبقات ابن سعد : (ج٨ / ٤٢٧) ، وانظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر : (ج٨ / ٢٤٣)

جالس في أهلي . قال : يقول أبو سفيان : ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ؛ ثم قتله نسطاس ، يرحمه الله .)[1]

ومثل آخر في هذا النموذج نجده عند سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه أثناء هجرته مع رسول الله ﷺ .

جاء في كتاب « البداية والنهاية » : (أن النبي ﷺ لما خرج هو وأبو بكر إلى ثور ، فجعل أبو بكر يكون أمام النبي ﷺ مرة ، وخلفه مرة ، فسأله النبي ﷺ عن ذلك فقال : إذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى من أمامك ، وإذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى من خلفك . حتى إذا انتهى إلى الغار من ثور قال أبو بكر : كما أنت حتى أدخل يدي فأحسه وأقصه ، فإن كانت فيه دابة أصابتني قبلك . قال نافع : فبلغني أنه كان في الغار جحر فألقم أبو بكر رجله ذلك الجحر تخوفاً أن يخرج منه دابة أو شيء يؤذي رسول الله ﷺ .)[2]

أبو دجانة رضي الله عنه

وتبلغ الأخوة الدعوية أعظم صورة لها في هذا النموذج ، إذ تتجلى في لوحة أخاذة يرسمها موقف الصحابي الجليل أبي دجانة الذي ترس دون رسول الله ﷺ ، ليقع النبل في ظهره بدل أن يقع على رسول الله ﷺ في غزوة أحد ، فيكون لهذه اللوحة الآسرة على صفحة الأخوة الدعوية أعظم الأثر في بناء أمة الإيمان ، وفي أجيالها الصاعدة ، وهي تتملاها ، وتهتدي بهداها .

جاء في كتاب « نور اليقين في سيرة سيد المرسلين » : (وممن ثبت سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه . . . ومنهم أبو دجانة سِماك بن خَرَشة الأنصاري رضي الله عنه تترَّس

---

(١) سيرة ابن هشام : (ج٣ / ٩٥)

(٢) ابن كثير : (ج٣ / ١٧٧ ، ١٧٨)

على رسول الله ﷺ ، فصار النبل يقع على ظهره وهو منحن حتى كثر فيه .)[1]

ومنهم أبو طلحة رضي الله عنه الذي فعل الشيء نفسه .

جاء في « الطبقات الكبرى » : (عن أنس بن مالك أن أبا طلحة ، كان يرمي بين يدي النبي ﷺ يوم أحد ، والنبي ﷺ خلفه يتَتَرَّسُ به ، وكان رامياً ، فكان إذا ما رفع رأسه ينظر أين وقع سهمه ، فيرفع أبو طلحة رأسه ويقول : هكذا بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لا يصيبك سهم ، نحري دون نحرك .)[2]

رسول الله ﷺ يبحث عن مكان آمن لصحابته كي يهاجروا إليه

اشتد البلاء على صحابة رسول الله ﷺ في مكة المكرمة ، ورسول الله ﷺ لا يتمكن من حمايتهم والدفاع عنهم .

جاء في كتاب « دلائل النبوة » : (عن خباب رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو متوسد برده في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة شديدة ، فقلت : يا رسول الله ألا تدعو الله لنا ، فقعد وهو محمر وجهه ، فقال : إن من كان قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه . . .)[3]

فكان الألم يعتصر كبده ﷺ على ما يراه ويسمعه من أخبارهم ، وكان لا بد للأخوَّة الدعويَّة من أن تأخذ مداها في تخليص القوم مما هم فيه ، وتخفيف معاناتاهم بصورة من الصور ، فأذن لهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة ، حتى إذا اطمأن على هجرتهم كان آخرَهم هجرة ، ليكون لموقفه هذا عظيم الأثر في كل

---

(١) محمد الخضري / ١٣٧ ، تحقيق عدنان مولود المغربي ، مكتبة الغزالي ـ دمشق ، ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م .

(٢) ابن سعد : (ج٣ / ٥٠٦)

(٣) الإمام البيهقي : (ج٢ / ٥٧)

من يتصدون للدعوة والقيادة ، فيعلموا أن أقل درجات أخوتهم الدعوية تجاه إخوانهم من أتباعهم أن يؤمّنوا لهم الحماية ، ويفتشوا لهم عن أرض يثبتون عليها ، يتوفر لهم فيها العيش الكريم ، وذلك قبل أن يجدوه لأنفسهم ، فضلاً عن أن يفروا مخلفين وراءهم الأتباع في شتات وضياع .

جاء في « طبقات ابن سعد » : (وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين . . . فشكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ واستأذنوه في الهجرة ، فقال : قد أريت دار هجرتكم ، . . . ثم خرج إلى أصحابه مسروراً فقال : قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب ، فمن أراد الخروج فليخرج إليها ، فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك . . . وخرج المسلمون جميعاً إلى المدينة ، فلم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وعلي ، أو مفتون محبوس ، أو مريض ، أو ضعيف عن الخروج .)[1]

عثمان بن عفان رضي الله عنه

إننا الآن في موقف من مواقف الأخوة الدعوية يتمثل في موقفه ﷺ يوم أن أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ليدخل مكة فيخبر أهلها ، بأنه ﷺ قدم محرماً بعمرة مع صحابته ، ولا يريد حرباً ، وذلك حين أقام عند الحديبية ومعه الهدي الذي ساقه من المدينة المنورة آخر سنة ست من الهجرة ، وبلغه أن عثمان رضي الله عنه قد غدروا به وقتلوه . عندها طلب البيعة من إخوانه ، ليثأر لدم عثمان ، معبراً عن أرقى أنواع الأخوة الدعوية التي

---

(١) طبقات ابن سعد : (ج١ / ٢٢٦)

تقتضي مثل هـذا الموقـف ، حيـث لا يجـوز للإخـوة مـن أهـل الإيمـان أن يخذلوا أخاً لهم ، ويتخلوا عنه ، ويتركوه فريسة لعدو الله ، دون أن يبذلوا وسعهم في نجدته ونصرته ، أو في الثأر له ولكرامته .

جاء في « سيرة ابن هشام » : (قال ابـن إسـحاق : فحدثـني عبـد الله ابن أبي بكر : أن رسول الله ﷺ ، قال حين بلغه أن عثمان قـد قتـل : لا نبرح حتى نناجز القوم ، فدعا رسول الله ﷺ النـاس إلى البيعـة ، فكـانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله ﷺ على الموت ، وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسـول الله ﷺ لم يبايعنـا على الموت ، ولكن بايعنا على أن لا نفر .)[1]

أما عثمان رضي الله عنه الذي كان خـبر مقتلـه بـاطلاً ، فـإن القـوم أكرمـوا وفادته ، وأرادوا منه إذا كان يرغب في الطواف بالكعبة بنفسـه فقـط فلـه ذلك ، أما رسول الله ﷺ وصحبه فلا ، لكن سـيدنا عثمـان رضي الله عنه منعتـه أواصـر أخوتـه الدعويـة مـن أن يقبـل هـذا العـرض دون رسـول الله ﷺ وصحبه الأخيار ، وينفرد بهذا التكريـم لنفسـه ، وهـو يعلـم شـدة شـوق رسول الله ﷺ وصحبه الأطهار للطواف ببيت الله الحرام : لذا كان لا بـد له أن يرفض هذا التكريم الذي يخصه دون سـواه ، ليكـون في هـذا درس بالغ الأهمية لكل المؤمنين حين تعرض على أحدهم عروض فردية سخية ، دون أن تطال إخوانهم مع أحقيتهم لها أن لا يقبلوها ، إلا إذا وصلـت إلى إخوانهم كما وصلت إليهم .

---

(١) سيرة ابن هشام : (ج٣ / ٢٠٢) ، وانظر سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد : (ج٥ / ٤٧) للإمام الصالحي الشامي ، ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م .

جاء في « سيرة ابن هشام » : (فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان ، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش ، يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت ، ومعظماً لحرمته .

قال ابن إسحاق : فخرج عثمان إلى مكة ، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة ، أو قبل أن يدخلها ، فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى بلَّغ رسالة رسول الله ﷺ ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلَّغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به ، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ .)[1]

أبو ذر رضي الله عنه

ويتجلى هذا النموذج في صهر المؤمنين في بوتقة الإيمان إخوة متحابين ، لا يتفاضلون إلا بالتقوى والعمل الصالح . والمشهد الذي سنعرضه في هذا النموذج هو مشهد الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه الذي عيَّر أحد إخوانه بأمه ، بسبب ما علق في نفسه من رواسب الجاهلية ، ثم كان لا بد له من موقف يقضي فيه على تلك الرواسب ، فكان موقفه الرائع الذي سجله له التاريخ ، كي يسلم للأخوة ودادها ، وتستمر الدعوة على أرض صلبة تطؤها أقدام أبنائها .

أخرج البخاري في صحيحه : (حدثنا سليمان بن حرب قال : حدثنا شعبة بن واصل الأحدب عن المعرور قال : لقيت أبا ذر بالرَّبَذَة ،

---

(١) المرجع نفسه : (ج٣ / ٢٠١ ، ٢٠٢)

وعليه حلة ، وعلى غلامه حلة ، فسألته عن ذلك فقال : إني سابت رجلاً فعيرته بأمه ، فقال لي النبي ﷺ : « يا أبا ذر أعيَّرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية . إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم . »)[1]

جاء في « شرح النووي على صحيح مسلم » للحديث : (وقد قيل : إن هذا الرجل المسبوب هو بلال المؤذن .)[2]

وجاء في « فتح الباري على صحيح البخاري » : (وقيل : إن الرجل المذكور هو بلال المؤذن مولى أبي بكر .)[3]

ولا يهم ما إذا كان المسبوب بلالاً أو غيره ، وإنما المهم أن يُعلم بأن السب ولو كان للعبيد من أبناء الإيمان ، فهو من رواسب الجاهلية ؛ فكيف به إذا توجه لغيرهم ؟ ! ثم إنه لمن المهم أيضاً الاستئناس بالطريقة التي تمت فيها معالجة تلك الرواسب ، على ما فيها من ضعف ، لأننا في قضايا أخوية يسعها مثل تلك الروايات .

جاء في « شرح الكرماني على صحيح البخاري » : (وفي الحديث النهي عن سب العبيد وتعييرهم بآبائهم ، . . . وروي أنه قال لأبي ذر : أعيَّرته بأمه ارفع رأسك ما أنت بأفضل ممن ترى من الأحمر والأسود إلا

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح : (ج١ / إيمان ـــ ٢٢ ، رقم ٣٠) ، وصحيح مسلم بشرح النووي : (ج١١ / كتاب الأيمان ، ص ١٣٤ ، رقم ٤٠)

(٢) انظر شرح النووي على الحديث : (المرجع السابق)

(٣) انظر شرح الحديث في فتح الباري : (ج١ / ٨٦)

أن تفضل في دين ، وقد روي أن بلالاً كان الذي عيَّره أبو ذر بأمه أي بسوادها ، فانطلق بلال إلى رسول الله ﷺ ، فشكى إليه تعييره بذلك ، فأمره رسول الله ﷺ أن يدعوه ، فلما جاء أبو ذر قال له رسول الله ﷺ : شتمت بلالاً وعيرته بسواد أمه ، قال : نعم ، قال له رسول الله ﷺ : ما كنت أحسب أنه بقي في صدرك من كبر الجاهلية شيء ، فألقى أبو ذر نفسه إلى الأرض ، ثم وضع خده على التراب ، وقال : والله لا أرفع خدي منها حتى يطأ بلال خدي بقدميه ، فوطئ خده بقدميه .)[1]

سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما

إنه النموذج الرائع الذي عبر فيه صحابة رسول الله ﷺ عن صدق أخوتهم ، ومتانة ارتباطهم بدعوتهم ، حيث أعطوا لرباط الأخوة الذي عقده صاحب هذه الدعوة بينهم ﷺ أصدق الوفاء ، ورعوه حق الرعاية ، لأنه رباط الدعوة الحقة إلى الله سبحانه ، وبدونه لا يمكن لأبناء الدعوات ، أن يفاخروا بأنهم أبناء دعوة ، ورباط أخوتهم مهزوز أو متقطع ، فكانت تلك الصورة الرائعة بين الصحابيَّيْن الجليلين تمثل الدرجة العالية التي توصل إليها أبناء الدعوة في أخوتهم ومودتهم .

جاء في « صحيح البخاري » : (قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : « لما قدمنا المدينة آخى رسول الله ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع ، فقال سعد بن الربيع : إني أكثر الأنصار مالاً ، فأقسم لك نصف مالي ، وانظر أي زوجتيَّ هويت نزلت لك عنها ، فإذا حلَّت تزوجتها ، قال : فقال له

---

(١) شرح الكرماني على صحيح البخاري : (ج١ / كتاب الإيمان ـ رقم الحديث : ٢٩)

عبد الرحمن : لا حاجة لي في ذلك ، هل من سوق فيه تجارة ؟ قال : سوق قينقاع ، قال : فغدا إليه عبد الرحمن فأتى بأقط وسمن . . .)[1]

ولم يقتصر الأمر في تلك الأخوة بين أبناء الدعوة الواحدة على هذا الموقف ، وإنما كانت تلك الأخوة أساساً متيناً لكل أبناء الإيمان بنوا عليه انطلاقتهم الدعوية .

جاء في كتاب « البداية والنهاية » : (وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا حميد عن أنس قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ، ولا أحسن بذلاً من كثير ، لقد كفونا المؤونة ، وأشركونا في المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله . قال : « لا ، ما أثنيتم عليهم ، ودعوتم الله لهم . »)[2]

الصحابة في غزوة تبوك

إنه ذلك المظهر الرائع من الأخوة الدعوية الذي تجلى في غزوة تبوك ، بصورة عجيبة تثير الدهشة ، وتبعث على التأمل والاعتبار .

في ذلك اليوم العصيب ، وفي تلك الظروف القاسية ، احتاج المسلمون إلى التعبير عن أصدق معاني الأخوة الدعوية ، نظراً لقلة ذات اليد لدى كثيرين ، والرسول ﷺ يدعو للتجهيز للسير في غزوة طويلة شاقة ، اضطر أن يعلن عن مقصدها ، ليكون التأهب مناسباً لها ، مع أنه كان في غزواته كلها لا يفصح عن وجهته فيها ، لأن تلك الغزوة لم تكن

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح : (ج٤ / كتاب البيوع ـ ١ ، رقم ٢٠٤٨)

(٢) ابن كثير : (ج٣ / ٢٢٧) ، وذكره صاحب حياة الصحابة : (ج١ / ٣٦٥) وقال : أخرجه ابن جرير والحاكم والبيهقي كما في كنز العمال : (ج٧ / ١٣٦)

كسواها في شدتها وقسوتها وضراوتها .

في هذا الوقت تجلت الأخوة الدعوية بأسمى معانيها ، واشتاق الجميع إلى المشاركة في تلك الغزوة ، وسار الضعفاء إلى رسول الله ﷺ وهم يرغبون في مشاركة إخوانهم من أبناء دعوتهم ، للدفاع عن الدين والعرض والمال والشرف ، فيعتذر لهم رسول الله ﷺ بأنه لا يجد ما يحملهم عليه ، فيتولّون وأعينهم تفيض من الدمع حزناً وألماً .

قال الله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[1]

لكن بعض هؤلاء الفقراء أبَوْا إلا أن يشاركوا إخوانهم بما تيسر لديهم على قلته مما عرضهم للمز المنافقين .

جاء في تفسير « معاني القرآن » : عند قوله سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ ﴾[2] : (ولمزهم إياهم : تَنقُّصُهم ؛ وذلك أن النبي ﷺ حث الناس على الصدقة ، فجاء عمر بصدقة ، وعثمان ابن عفان بصدقة ، وبعض أصحاب النبي ﷺ ، ثم جاء رجل يقال له : أبو عُقَيل بصاع من تمر ، فقال المنافقون : ما أخرج هؤلاء صدقاتهم إلا رياء ،

---

(١) من سورة التوبة : (الآيتان / ٩١ ، ٩٢)

(٢) من سورة التوبة : (الآية / ٧٩)

فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ يعني المهاجرين ، ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ يعني أبا عُقيل .)[1]

أما الذين لم يجدوا حتى هذا اليسير ليقدموه وفاء لأخوتهم الدعوية ، فقد تجلت أخوَّتهم بصورة عجيبة ، دفعت أحدهم أن يتصدق على إخوانه بعفوه وصفحه عن كل مَن أساء إليه منهم .

جاء في كتاب « الإصابة في تمييز الصحابة » : (كان عُلْبة بن زيد ابن حارثة رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ، فلما حض على الصدقة جاء كل رجل منهم بطاقته وما عنده ، فقال علبة بن زيد : اللهم إنه ليس عندي ما أتصدق به ، اللهم إني أتصدق بعرضي على مَن ناله مِن خلقك ، فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي : أين المتصدق بعرضه البارحة ؟ فقام عُلبة ، فقال : قد قُبلت صدقتك .)[2]

وفي الوقت نفسه ، وبالروح الأخوية الدعوية نفسها ، التي تجلت في نفوس الضعفاء ، جاد الأغنياء بأموالهم معبرين عن أخوَّتهم الصادقة ، تجاه إخوانهم من أبناء دعوتهم ، ليجد هؤلاء الإخوةُ الضعفاءُ الزادَ والراحلةَ ، فيكونون مع إخوانهم وإلى جوارهم في نصرة دعوتهم .

---

(١) الفراء : (ج١ / ٤٤٧) ، ط عالم الكتب ـ بيروت ، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٩٣ م . والفراء هو يحيى بن زياد ابن عبد الله قيل له الفراء لأنه كان يفري الكلام ، كان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي ، كان أغلب مقامه ببغداد ، فإذا كان آخر السنة أتى الكوفة ، توفي رحمه الله في طريق عودته من مكة سنة ٢٠٧ هـ . عن بغية الوعاة للسيوطي : (ج٢ / ٣٣٣)

(٢) ابن حجر : (ج٤ / ٢٦١) ، والحديث صححه الألباني في تعليقه على فقه السيرة لمحمد الغزالي ، ص ٤٣٩ .

جاء في صحيح البخاري : « وقال النبي ﷺ : من جهز جيش العسرة فله الجنة . فجهزه عثمان . »[1]

وجاء في كتاب « الرحيق المختوم » : (كما تسابق المسلمون في إنفاق الأموال ، وبذل الصدقات . كان عثمان قد جهز عيراً للشام مائتا بعير بأقتابها[2] وأحلاسها[3] ومائتا أوقية ، فتصدق بها ، ثم تصدق بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، ثم جاء بألف دينار ، فنثرها في حجره ﷺ ، فكان رسول الله ﷺ يقلبها ويقول : « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم . »[4] ، ثم تصدق وتصدق حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير ، ومائة فرس سوى النقود . وجاء عبد الرحمن بمائتي أوقية فضة ، وجاء أبو بكر بماله كله ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله ، وكانت أربعة آلاف درهم ، وهو أول من جاء بصدقته ، وجاء عمر بنصف ماله ، وجاء العباس بمال كثير ، وجاء طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن سلمة ، كلهم جاؤوا بمال ، وجاء

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح : (ج٧ / كتاب فضائل الصحابة ـ ٧ ، باب مناقب عثمان رضي الله عنه)

(٢) قال ابن الجوزي : (في الحديث : « لا صدقة في الإبل القتوبة » . يعني التي توضع الأقتاب على ظهورها للعمل .) غريب الحديث : (ج٢ / ٢١٨) وابن الجوزي هو أبو الفرج عبد الرحمن بن جعفر الجوزي القرشي البغدادي الفقيه الحنبلي الواعظ الملقب جمال الدين الحافظ توفي سنة ٥٩٧ هـ وهو موسوعة حيث إن مؤلفاته في كثير من الفنون في علوم القرآن وتفسيره والحديث والتاريخ والتراجم واللغة والأدب والاجتماع .

(٣) الأحلاس : جمع حِلْس ، وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب . من النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير : (ج١ / ٤٢٣)

(٤) أخرجه الترمذي : (مناقب / ١٨ ـــ مناقب عثمان بن عفان) ، وأحمد : (ج٥ / ٦٣) ، والحديث ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح ، وقال : أخرجه الترمذي والحاكم . فتح الباري : (ج٨ / ١١١)

عاصم بن عدي بتسعين وسقاً[1] من التمر ، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها ، حتى كان منهم من أنفق مداً أو مدين لم يكن يستطيع غيرها . وبعثت النساء ماقدرن عليه من مسك ، ومعاضد ، وخلاخل ، وقرط ، وخواتم .)[2]

أبو خيثمة رضي الله عنه

إنه الموقف العجيب الذي سجله الصحابي الجليل : أبو خيثمة رضي الله عنه في تلك الغزوة ، حيث لم تطب نفسه أن يتخلف عن رسول الله ﷺ وعن إخوانه من أبناء دعوته ، فيبقى في الظل الظليل ، والماء الغدير ، ورسول الله ﷺ وإخوانه الأطهار يمضون في الحر الشديد يقاسون ويكابدون ، لإعزاز دين الله ، ونصرة دعوته .

جاء في « سيرة ابن هشام » : (ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أياماً إلى أهله في يوم حار ، فوجد امرأتين له في عريشين[3] لهما في حائطه[4] قد رشت كل واحدة منهما عريشها ، وبردت له فيه ماء ، وهيأت له فيه طعاماً . فلما دخل قام على باب العريش ، فنظر إلى

---

(١) الوَسْق : ستون صاعاً ، أو حمل بعير . القاموس المحيط : (ج٣ / باب القاف فصل الواو) .

(٢) صفي الرحمن المباركفوري / ٤١٥ ، ٤١٦ ، ط دار القلم ـ بيروت ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م ، وهو بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وقد فاز صاحبه بالجائزة الأولى لمسابقة السيرة النبوية التي نظمتها رابطة العالم الإسلامي ، وانظر صحيح البخاري مع الفتح : (ج٨ / كتاب المغازي ـ ٧٨ ، باب غزوة تبوك ، وهي غزوة العسرة)

(٣) العريش : ما يستظل به .

(٤) الحائط : البستان .

امرأتيه وما صنعتا له ، فقال : رسول الله ﷺ في الضح[1] والريح والحر ، وأبو خيثمة في ظل بارد ، وطعام مهيأ ، وامرأة حسناء ، في ماله مقيم ، ما هذا بالنَّصَف ! ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ ، فهيئا لي زاداً ، ففعلتا . ثم قدم ناضحه فارتحله ، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل بتبوك .)[2]

هكذا ألحت على أبي خيثمة رضي الله عنه أخوَّته الدعوية كي يشارك رسول الله ﷺ ، وإخوانه من أبناء دعوته الذين ساروا جميعاً فيما يرضي الله عز وجل متحملين أعباء الجهاد وتكاليفه في ساعة العسرة ، حتى يعبر عن صدق هذه الأخوة الدعوية التي مبعثها الإيمان . ثم إن هذه الأخوة الدعوية تجلت بين المؤمنين بشكل مذهل لا تكاد تعرفه مقاييس البشر .

قال الله تعالى : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾[3] جاء في تفسير « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » : (﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ في وقتها ، وهي حالهم في غزوة تبوك ، كانوا في عسرة من الظهر ، تعتقب العشرة على بعير واحد ، والزاد حتى قيل إن الرجلين كانا يقتسمان تمرة ،

---

(١) الضح : الشمس .

(٢) سيرة ابن هشام : (ج٤ / ١٢١)

(٣) من سورة التوبة : (الآية / ١١٧)

والماء حتى شربوا الفظ[1])[2]

وجاء في تفسير « المحرر الوجيز » : (إن العسرة بلغت بهم في تلك الغزوة وهي غزوة تبوك إلى أن قسموا التمرة بين رجلين ، ثم كان النفر يأخذون التمرة الواحدة فيمضغها أحدهم ويشرب عليها الماء ، ثم يفعل كلهم بها ذلك .)[3]

ونكتفي بهذا القدر من نماذج الأخوة الدعوية التي تحققت على عهد رسول الله ﷺ ، والتي كانت وستبقى غرة في جبين الدهر ، يتطلع إليها المؤمنون عبر القرون بكل فخر واعتزاز .

---

(١) الفظ : ماء الكرش يشرب عند عوز الماء في المفاوز . المعجم الوسيط / فظ ، مطابع دار المعارف ، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م .

(٢) البيضاوي / ٢٦٩ ، طبعة دار الفكر ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م .

(٣) ابن عطية : (ج٣ / ٩٣)

الفصل الثاني

نمـــــاذج من الأخوة الدعوية في عهد الخلفاء الراشدين ومَن بَعدهم رضي الله عنهم

لم تقتصر نماذج الأخوة الدعوية على العهد النبوي فحسب ، وإنما امتدت لتشمل أبناء الإيمان في كل زمان ومكان ، لأن الأخوة والإيمان توءمان لا يفترقان .

ومن هنا فقد استمر أبناء الإيمان يضربون أروع الأمثلة في أخوة دعوية نموذجية ، لم تشهد لها الدنيا مثيلاً خارج دائرة الإيمان ، ولن تشهد .

عبد الله بن حذافة رضي الله عنه

ويتجلى في موقف الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة رضي الله عنه الذي رفض وهو في الأسر ، أن يكون ثمنُ حريته تقبيلَ رأس ملك الروم ، إلا إذا كان وراء هذا التقبيل إطلاق سراح جميع إخوانه معه من أسرى المسلمين ، دون أن ينسيه هذا العرض في إطلاقه من الأسر ـ مع شدة ما لاقاه فيه ـ إخوانه الذين يقبعون في الأسر معه ، وإنما ربط مصيره معهم سواء بسواء ، ليضرب أروع الأمثلة في نماذج الأخوة الدعوية .

جاء في كتاب « الإصابة في تمييز الصحابة » عند ترجمته لابن حذافة رضي الله عنه : (وجَّه عمر جيشاً إلى الروم ، وفيهم عبد الله بن حذافة فأسروه ، فقال له ملك الروم : تنصَّر أشركك في ملكي ، فأبى ، فأمر به فصلب ، وأمر برميه بالسهام ، فلم يجزع ، فأُنزل ، وأمر بقدر فصب فيها الماء وأغلي عليه ، وأمر بإلقاء أسير فيها ، فإذا عظامه تلوح ، فأمر بإلقائه إن لم يتنصر ، فلما ذهبوا به بكى ، قال : ردوه ، فقال : لِمَ بكيت ؟ قال : تمنيت أن لي مائة نفس تلقى هكذا في الله ، فعجب ، فقال : قبِّل رأسي

وأنا أخلي عنك ، فقال : وعن جميع أسارى المسلمين ، قال : نعم ، فقبل رأسه فخلى بينهم ، فقدم بهم على عمر فقبل رأسه .)[1]

أجل ! لم يكن لإغراء الملك سبيل إلى قلب هذا الداعية ، كي يترك دينه ويتنصر . كما أنه لم يكن لعرض المصالح الشخصية ، والمكاسب الفردية بعيداً عن روح الأخوة الدعوية أي أثر لقبول هذا العرض ولو كان فيه فكاكه من الأسر ، ونجاته من القتل ، لأنه كان ينظر إلى إخوانه الأسرى معه بالعين نفسها التي كان ينظر فيها إلى نفسه ، ونصب عينيه قوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه . »[2] ويفهم من هذا أنه لا يؤمن المؤمن حتى يكره لإخوانه ما يكرهه لنفسه من الشر .

جاء في « فتح الباري » : (قال الكرماني : ومن الإيمان أيضاً أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من الشر ، ولم يذكره ، لأن حب الشيء مستلزم لبغض نقيضه ، فترك التخصيص عليه اكتفاء . والله أعلم .)[3]

وبهذه الصورة الصادقة من الأخوة الدعوية الفريدة أكرم الله هذا الصحابي الجليل ، وجميع إخوانه من الأسرى معه بخلاصهم ونجاتهم ، وكانت فرحة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بهذا الموقف عظيمة حتى قام إلى عبد الله بن حذافة وقبَّل رأسه حين قفل راجعاً ووفد عليه .

---

(١) ابن حجر : (ج٤ / ٥٦)

(٢) صحيح البخاري مع الفتح : (ج١ / إيمان ـ ٧ ، رقم الحديث ١٣) ، وصحيح مسلم بشرح النووي : (ج٢ / إيمان ، ص ١٦ ، رقم الحديث ٧١)

(٣) المرجع نفسه : (ج١ / ص ٥٨)

خالد بن الوليد رضي الله عنه

حين بويع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أميراً للمؤمنين عزل خالد ابن الوليد رضي الله عنه عن قيادة الجيش ، وعين مكانه أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ، فتجلت بذلك أروع صورة للإخاء الدعوي بين هذين الصحابيَّين .

جاء في « طبقات ابن سعد » : (قال عمر بن الخطاب : لأعزلن خالد بن الوليد والمثنَّى مثنى بني شيبان ، حتى يعلما أن الله إنما كان ينصر عباده ، وليس إياهما كان ينصر .)[1]

لم تهتز دنيا الأمس ، كما يمكن أن تهتز دنيا اليوم لمثل هذا الحدث الخطير ، وما ذاك إلا لأن الأخوَّة الدعوية التي تملكت الصحابيَّيْن الجليلين خالد بن الوليد وأبا عبيدة رضي الله عنهما ، جعلتهما يحرصان على وحدة الأمة وألفتها ، لتكون فوق أي اعتبار آخر .

جاء في كتاب « البداية والنهاية » : (وأن عمر كتب إلى أبي عبيدة يعزيه والمسلمين في الصِّدِّيق ، وأنه قد استنابه على من بالشام ، وأمره أن يستشير خالداً في الحرب ، فلما وصل الكتاب إلى أبي عبيدة كتمه من خالد حتى فتحت دمشق بنحو من عشرين ليلة ، فقال له خالد : يرحمك الله ، ما منعك أن تعلمني حين جاءك ؟ فقال : إني كرهتَ أن أكسر عليك حربك ، وما سلطان الدنيا أريد ، ولا للدنيا أعمل ، وما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع ، وإنما نحن إخوان ، وما يضر الرجل أن يليه أخوه في دينه ودنياه .)[2]

---

(١) طبقات ابن سعد : (ج٣ / ٢٨٤)

(٢) ابن كثير : (ج٧ / ٢٣ ، ٢٤)

وفي مقابل ذلك ، فقد كان خالد رضي الله عنه مثال الأخ الصادق حيث استقبل الأمر بعزله بصدر رحب ، وسلم الراية بكل الرضا والارتياح إلى أخيه أبي عبيدة رضي الله عنه حفاظاً على وحدة الأمة وألفتها .

جاء في كتاب « تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي » : (ولكن خالداً لم يكن بالرجل الذي يتمرد على خليفة رسول الله ﷺ ، أو يعترض على أمره ، لأنه يحرص على وحدة المسلمين ، حتى ينصرفوا إلى جهاد العدو ، فإنه لما قرأ كتاب عمر قال : ما أنا بالذي أعصي أمير المؤمنين ، وحارب تحت إمرة أبي عبيدة جندياً من جنود الإسلام .)[1]

وبقي الود والإخاء بين هذين الصحابيين ، وبقي خالد إلى جوار أبي عبيدة يمده بكل خبراته وتجاربه .

جاء في كتاب « تاريخ الإسلام » أيضاً : (فإن فتح الله عليك فانصرف أنت وخالد إلى حمص . . .)[2]

فأية أخوة دعوية تربى عليها الصحابيان الجليلان رضي الله عنهما ؟ ! حيث أطفأا نار فتنة كان يمكن أن تشتعل ، ولا يعلم إلا الله مدى ما يمكن أن تحدثه في الأمة من تخريب ، وتمزيق وضياع . . .

وكيف يكون الحال لو حدث مثل هذا لبعض الجماعات اليوم حين تعزل بعض قياداتها ، وتصفي بعض حساباتها ؟ !

---

(١) د . حسن إبراهيم حسن : (ج١ / ٢٢٧ . ٢٢٨) ، ط دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، ١٩٦٤ م .

(٢) المرجع نفسه : (ج١ / ٢٢٨ . ٢٢٩)

أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه

كان أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه يقود المسلمين في بلاد الشام من نصر إلى نصر حتى فتح الله على يديه الديار الشامية كلها ، ثم نزل بهم الطاعون ، فحصد كثيراً منهم ، وخاف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على أمين الأمة أبي عبيدة رضي الله عنهما ، فأرسل في طلبه إلى المدينة المنورة عساه يستنقذه من هذا البلاء . لكن أنى لأبي عبيدة رضي الله عنه أن يقبل هذا العرض ، ويتخلى عن إخوانه من أبناء دعوته ؟ ! ليكون الناجي بنفسه من دونهم ، وهم إخوانه الذين يسيرون معه في درب الدعوة ، وتربطه بهم أخوة عجيبة ، تلحُّ عليه أن يلاقي ما يلاقون ، ويصبر ويحتسب كما يصبرون ويحتسبون ، لتصدق بذلك الأخوة الدعوية ، ولا تكون مجرد دعوى تعيش في فراغ .

جاء في كتاب « سير أعلام النبلاء » : (أن عمر رضي الله عنه كتب إلى أبي عبيدة في الطاعون : إنه قد عرضت لي حاجة ، ولا غنى لي عنك فيها ، فعجِّل إلي . فلما قرأ الكتاب ، قال : عرفت حاجة أمير المؤمنين ، إنه يريد أن يستبقي من ليس بباقٍ ، فكتب : إني قد عرفت حاجتك ، فحلِّلني من عزيمتك ، فإني في جندٍ من أجناد المسلمين ، لا أرغب بنفسي عنهم ، فلما قرأ عمر الكتاب ، بكى ، فقيل له : مات أبو عبيدة ؟ قال : لا . وكأنْ قد .)[1]

---

(١) الذهبي : (ج١ / ١٨) . وأخرجه الحاكم : (ج٣ / ٢٦٣) ، وقال : رواته كلهم ثقات ، وانظر : د . محمد رأفت الباشا ، صور من حياة التابعين ـ الكتاب الثاني / ١٧ ، ١٨ .

عطاء بن أبي رباح رحمه الله

لقد كان عطاء بن أبي رباح ـ رحمه الله ـ التابعي الجليل وارث ابن عباس رضي الله عنهما في علمه ودعوته ، حتى خلفه في منصبه في مكة المكرمة . لكن الرجل لم يخطر بباله يوماً أن يستغل علمه أو دعوته أو منصبه لمصالحه الشخصية ، أو منافعه المحدودة ، وإنما كان يرفض ذلك كله ، ويستثمر تلك الدعوة في خدمة إخوانه من أبناء دينه ، لتكون للدعوة أبعادها الأخوية في كل أبناء أمته ، على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ، حيث إنهم جميعاً أبناء دعوة واحدة ، ومن حقهم عليه أن لا يألو جهداً في تقديم الخير لهم ، دون أن يحبس ذلك الخير على نفسه ، أو خواصه من أهله وقرابته . فهو لذلك لا يوفر فرصة يتمكن فيها من تقديم النفع لهم ، أو دفع الضر عنهم إلا ويستثمرها ، شأنه شأن الدعاة الصادقين ، الذين تتمكن الأخوة الدعوية في أذهانهم ، وتتجسد في سلوكهم وتصوراتهم ، على أن أبناء الدعوة الواحدة جسد واحد في السراء وفي الضراء على حد سواء .

جاء في كتاب « البداية والنهاية » : (وروى الطبراني وغيره أن الحلقة في المسجد الحرام كانت لابن عباس ، فلما مات ابن عباس كانت لعطاء بن أبي رباح . . . وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير حدثنا عمر ابن ذر قال : ما رأيت مثل عطاء قط ، وما رأيت على عطاء قميصاً قط ، ولا رأيت عليه ثوباً يساوي خمسة دراهم .)[1]

وجاء في كتاب « صور من حياة التابعين ـ الكتاب الأول ـ » : (ولقد دعاه الخلفاء إلى مصاحبتهم ، فلم يجب دعوتهم ، لخشيته على دينه

---

(١) ابن كثير : (ج٩ / ٣١٩ ، ٣٢٠)

من دنياهم . لكنه ـ مع ذلك ـ كان يفد عليهم إذا وجد في ذلك فائدة للمسلمين أو خيراً للإسلام .)[1]

وجاء في « سير أعلام النبلاء » : (قال الأصمعي : دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك ، وهو جالس على السرير ، وحوله الأشراف ، وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته ، فلما بصر به عبد الملك ، قام إليه فسلم عليه ، وأجلسه معه على السرير ، وقعد بين يديه ، وقال : يا أبا محمد : حاجتَك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ! اتق الله في حرم الله ، وحرم رسوله ، فتعاهدْه بالعمارة ، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار ، فإنك بهم جلست هذا المجلس ، واتق الله في أهل الثغور ، فإنهم حصن المسلمين ، وتفقد أمور المسلمين ، فإنك وحدك المسؤول عنهم ، واتق الله فيمن على بابك ، فلا تغفل عنهم ، ولا تغلق دونهم بابك ، فقال له : أفعل ، ثم نهض وقام ، فقبض عليه عبد الملك وقال : يا أبا محمد ! إنما سألتنا حوائج غيرك ، وقد قضيناها ، فما حاجتك ؟ قال : مالي إلى مخلوق حاجة ، ثم خرج ، فقال عبد الملك : هذا وأبيك الشرف ، هذا وأبيك السؤدد .)[2]

وهكذا لم يكن في حياة هذا الداعية الكبير حظ لنفسه أو مصالحه ، وإنما وهب دعوته لكل أبناء أمته .

وحين يحمل دعاة اليوم هذه المعاني الأخوية ، فيعملون لأمتهم ، ويبذلون لأمتهم ، بكل الحب والوفاء ، بعيداً عن المكاسب الشخصية ، والتعصبات الحزبية ، فإن الله عندئذ يكتب لدعوتهم القبول والنجاح ، وتسعد بهم أمتهم فتتحقق لها آمالها وتطلعاتها .

---

(١) د . محمد رأفت الباشا / ٢١ ، ط دار عكاظ للطباعة والنشر ـ جدة ، ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م ، الطبعة الثالثة .

(٢) الذهبي : (ج٥ / ٨٤)

الحسن البصري رحمه الله

كان الحسن البصري ـ رحمه الله ـ من سادات التابعين ، وهو سيد أهل زمانه علماً وعملاً ودعوة ، وقد كانت تربطه بإخوانه من أبناء دعوته أخوة فريدة ، تجعله يغار عليهم غيرة شديدة ، حتى إنه ليغضب أشد الغضب إذا وجدهم في موقف لا يناسب مراكزهم العلمية ، ولا يليق بمكانتهم الدعوية والاجتماعية ، فيتوجه إليهم بالنصيحة الصادقة ، والنقد اللاذع ، حتى لا يراهم إلا على الحال التي يحبها لنفسه ، لأنهم إخوانه وأبناء دعوته ، وعزه من عزهم ، وذله في ذلهم وخنوعهم .

جاء في « سير أعلام النبلاء » : (حدثنا فضيل بن جعفر ، قال : خرج الحسن من عند ابن هبيرة[1] ، فإذا هو بالقراء على الباب ، فقال : ما يجلسكم ههنا ؟ تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء ، أما والله ما مجالستهم مجالسة الأبرار . تفرقوا فرق الله بين أرواحكم وأجسادكم ، قد فرطحتم ـ أي عرضتم ـ نعالكم ، وشمرتم ثيابكم ، وجززتم شعوركم ؛ فضحتم القراء فضحكم الله ؛ والله لو زهدتم فيما عندهم ، لرغبوا فيما عندكم ، ولكنكم رغبتم فيما عندهم ، فزهدوا فيكم ، أبعد الله من أبعد .)[2]

أحمد بن حنبل رحمه الله

إن أبناء الدعوة الحقة تربطهم أخوة تدعوهم أن يثبت الداعية أخاه من أبناء دعوته على الحق بالكلمة وبالمال وبالموقف ، وبكل ما يستطيعه ،

---

(١) ابن هبيرة : هو عمر بن هبيرة الفزاري رجل بني أمية الكبير ووليهم على العراق ، وقد عرف بظلمه فيه ، حتى قال له محمد ابن سيرين حين دخل عليه وسأله عن أهل بلده فقال : تركتهم والظلم فيهم فاش ، وأنت عنهم لاه . صور من حياة التابعين ـ الكتاب الثاني / ٦٩ .

(٢) الذهبي : (ج٤ / ٥٨٦)

ومن هنا فقد توجه أبناء الدعوة إلى الإمام أحمد بن حنبل يشدون من أزره ، ويثبتونه في محنته .

جاء في كتاب « سير أعلام النبلاء » : (قال أحمد بن حنبل : ما سمعت كلمة منذ وقعت في هذا الأمر أقوى من كلمة أعرابي كلمني بها في رحبة طوق . قال : يا أحمد ، إن يقتلك الحق ، مُتَّ شهيداً ، وإن عشت ، عشت حميداً . فقوَّى قلبي . . . وقال حنبل : قال أبو عبد الله : ما رأيت أحداً على حداثة سنه ، وقدر علمه أقوم بأمر الله من محمد بن نوح ، إني لأرجو أن يكون قد ختم له بخير . قال لي ذات يوم : يا أبا عبد الله ، اللهَ اللهَ ، إنك لست مثلي . أنت رجل يُقتدَى بك . قد مدَّ الخلق أعناقهم إليك ، لما يكون منك ، فاتق الله واثبت لأمر الله ، أو نحو هذا .)[1]

أجل إن الأخوة الدعوية تعني أن يثبِّت الداعية أخاه من الدعاة ، ويشد من أزره ، لا أن يثبطه ، ويفت في عضده . كما أن الأخوة الدعوية تعني أن لا يزوِّر الداعية الحقائق على إخوانه ، أو يلبسها بأي لبوس مزيف ، حتى تظهر كأنها الحق الذي ما بعده حق ، فيُضل بذلك إخوانه من أبناء الإيمان الذين يثقون به ، ويطمئنون إلى أقواله وأفعاله .

وبناء على ذلك فإن الإمام أحمد ـ يرحمه الله ـ لم يترخص لنفسه في قول خشي فيه أن يؤذي إخوانه الذين ينتظرون ما يقول ، وضرب أروع الأمثلة في أخوته الدعوية التي منعته أن يقول كلمة يترخص فيها لنفسه ، ويمكن أن تكون سبباً في إضلال إخوانه من أبناء دعوته وأمته . وإنما ثبت على الحق ثبات الأبطال ، ليكون نموذجاً حياً لكل الدعاة على مر العصور .

---

(١) الذهبي : (ج١١ / ٢٤١ ، ٢٤٢)

جاء في كتاب « سير أعلام النبلاء » : (قال المرُّوذي[1] : قلت ، وأبو عبد الله بين الهنبازين : يا أستاذ ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾[2] قال : يا مرُّوذي ، اخرج وانظر . فخرجت إلى رحبة دار الخلافة ، فرأيت خلقاً لا يحصيهم إلا الله ، والصحف في أيديهم ، والأقلام والمحابر فقال لهم المروذي : ماذا تعملون ؟ قالوا : ننظر ما يقول أحمد ، فنكتبه . فدخل فأخبره . فقال : يا مروذي ! أضلٌّ هؤلاء كلهم ؟ ! .)[3]

أجل ! إنها لأمانة وأي أمانة ؟ ! يحرص من أجلها الداعية على الكلمة الصريحة والموقف الواضح ، خشية أن تُحمل تلك الكلمة على غير معناها ، أو يفسَّر ذلك الموقف بغير ما كان من أجله ، فيكون لهذا وذاك عظيم الأثر في إضلال الأتباع من أبناء الإيمان ، الذين تربطهم بالدعاة أخوة دعوية عرفوا فيها عظيم الصدق ، وغاية الوفاء ، حتى وإن كان المدخل إلى هذا الإضلال ضيقاً ومحدوداً ، إلا أنه يبقى معبراً للشيطان ووساوسه وشهواته .

وعلى هذا الأساس فقد كان للتابعي الجليل طاوس موقف عجيب يظهر دقة فهمه ، وعظيم أخوته .

---

(١) المرُّوذي : نسبة إلى مَرْو الرُّوذ وهي بلدة فارسية ، ومعنى المرو : الحجارة البيض ، والرُّوذ : النهر ، وهي قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام . والمروذي : هو أبو بكر أحمد بن محمد بن صالح ابن حجاج المروذي صاحب أحمد ابن حنبل ، وهو مقدم أصحاب أحمد بن حنبل ، وكان يأنس به ، وينبسط إليه . معجم البلدان لياقوت الحموي : (ج٥ / ١١٢) ، دار إحياء التراث العربي ـــ بيروت ، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

(٢) من سورة النساء : (الآية / ٢٩) .

(٣) الذهبي : (ج١١ / ٢٥٣ ، ٢٥٤)

جاء في كتاب « إحياء علوم الدين » : (ودخل وهب بن منبه وطاوس على محمد بن يوسف أخي الحجاج ، وكان عاملاً ، وكان في غداة باردة في مجلس بارز ، فقال لغلامه : هلم ذلك الطيلسان وألقه على أبي عبد الرحمن ـ أي طاوس ـ وكان قد قعد على كرسي ، فألقى عليه ، فلم يزل يحرك كتفيه حتى ألقى الطيلسان عنه ، فغضب محمد بن يوسف ، فقال وهب : كنت غنياً عن أن تغضبه لو أخذتَ الطيلسان وتصدقت به ، قال : نعم ، لو لا أن يقول مَنْ بعدي : إنه أخذه طاوس ، ولا يصنع به ما أصنع به إذن لفعلت .)[1]

هكذا إذن ، يحاسب الدعاة أنفسهم على كل كلمة يقولونها ، وكل موقف يتخذونه ، حتى لا يكون هناك سبيل إلى استغلال هذه الكلمة أو ذاك الموقف ، بشكل سيئ يتحمل الداعية وزره ، ووزر من عمل به ، وذلك كي تبقى للأخوَّة الدعوية مكانتها ورفعتها ، دون أن تعمل الكلمات أو المواقف على إفسادها أو القضاء عليها ، لأنه إذا سقط الداعية في أعين الناس بسبب من ذلك ، صار من الصعب أن تعود له الثقة بعد فقدها ، أو أن تقوم له قائمة بعدها .

عمر بن عبد العزيز رحمه الله

في سيرة سلفنا الصالح صفحات وضيئة تنير الدرب لكل السائرين في طريق الأخوة الدعوية . ومن بين هذه الصفحات صفحة الخليفة عمر بن عبد العزيز ، تلك الصفحة المشرقة التي سطرت لنا بأحرف من نور موقفه من المسيرة الدعوية في ظل المعاني الأخوية ، لتبين لكل الداعين إلى الله سبحانه بالكلمة الطيبة والأسلوب الحكيم ، أن عليهم أن يعلموا بأن

---

(١) الإمام الغزالي : (ج٢ / ١٣١)

المنطق الدعوي منطق أخوي ، ولا يجوز أن يعكره المنطق المادي .

لـذا فإننـا نجـده رحمه الله يـهتم كـل الاهتمـام بدخـول أبنـاء الذمـة في الإسلام ، ويفرح أشد الفرح لهذا النصر العظيم ، والفتح المبين ، ولو كان في ذلك خسارة فادحة لبيت المال الـذي كـان يتلقـى الجزيـة منـهم لقـاء حمايتهم والدفاع عنهم .

فأبناء الإيمان الجـدد الذيـن اختـاروا الدخـول في الإسـلام ، يرتبطـون اليـوم بـأقوى روابـط الأخـوة الدعويـة ، ومـن حقـهم علـى إخوانـهم أن يكونوا معاً . فوق المصالح المادية ، والاعتبارات الأرضية .

ومن هنـا فقـد جـاء تصريـح الخليفـة صارخـاً ومدويـاً « إن الله بعـث محمداً ﷺ داعياً و لم يبعثه جابياً » .

جـاء في « سير أعـلام النبلاء » : (حدثنا يعقوب بن عبد الرحمـن ، عـن أبيه أن حيان بن شريح عامل مصر كتـب إلى عمـر بـن عبـد العزيـز : إن أهل الذمة قد أشرعوا في الإسلام ، وكسروا الجزية ، فكتب إليـه : إن الله بعث محمداً ﷺ داعياً و لم يبعثه جابياً ، فإذا أتاك كتابي ، فـإن كـان أهـل الذمة أشرعوا في الإسلام ، وكسروا الجزية ، فاطوِ كتابك وأقبلْ .)[1]

وهكذا فإن أبناء الدعوة الإسلامية يرتبطون برباط الأخـوة الإيمانيـة ، ذلك الربـاط الـذي يصعـب أن تفسـده العوامـل الماديـة ، أو تطغـى عليـه الموازين الأرضية .

وكيف لا يكون عمر بن عبد العزيز كذلك ، ومعاني الأخـوة لأبنـاء أمته تملأ نفسه ، وهي مع كل نبضة من نبضات قلبه ؟ !

---

(١) الذهبي : (ج٥ / ١٤٦ ، ١٤٧) ، وقال المحقق في الحاشية عن الحديث : رجاله ثقات .

جاء في كتاب « تاريخ الخلفاء » : (وقال عطاء بن أبي رباح : حدثتني فاطمة امرأة عمر أنها دخلت عليه وهو في مُصلاّه تسيل دموعه على لحيته ، فقالت : يا أمير المؤمنين ألشيءٍ حدث ؟ قال : يا فاطمة إني تقلدت من أمر أمة محمد ﷺ أسودها وأحمرها ، فتفكرت في الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعاري المجهود ، والمظلوم المقهور ، والغريب الأسير ، والشيخ الكبير ، وذي العيال الكثير والمال القليل ، وأشباههم في أقطار الأرض ، وأطراف البلاد ؛ فعلمت أن ربي سائلني عنهم يوم القيامة ، فخشيت أن لا تثبت لي حجة ؛ فبكيت .)[1]

الإمام الشافعي رحمه الله

إن الأخوَّة الدعوية التي تربط بين أبناء الدعوة الواحدة ، لتجعل منهم إخواناً متآلفين متعاونين في جسد واحد ، لا يمكن لها أن تتاثر أو تتصدع ، لمجرد الاختلاف في الرأي الذي وسعته شريعتنا الغراء ، وإنما يبقى حبل الوداد موصولاً بين القلوب التي غمرها الإيمان ، وهي تتوجه بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى . وخير شاهد على ذلك نجده عند الإمام الشافعي ــ رحمه الله ــ الذي لم يكن لاختلافه بالرأي مع إخوانه من أبناء دعوته أي أثر سلبي على إخائه الدعوي الذي يجب أن يبقى قائماً في نظره ، لأنه فوق هذه الاعتبارات ، ويجب أن يبقى هذا الاختلاف في مكانه من الفكر ، دون أن يجد طريقه إلى القلب ، حتى لا يفسد عليه أخوته ومودته .

جاء في كتاب « سير أعلام النبلاء » : [قال يونس الصَّدَفيُّ : (ما رأيت أعقل من الشافعي ، ناظرته يوماً في مسألة ، ثم افترقنا ، ولقيني ،

---

(١) السيوطي / ٢٣٦ ، بدون ذكر المطبعة والتاريخ ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

فأخذ بيدي ، ثم قال : يا أبا موسى ، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة .)

قلت ـ والكلام للذهبي ـ : هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام ، وفقه نفسه ، فما زال النظراء يختلفون .][1]

هكذا إذن تبقى الأخوة بين أبناء الدعوة الواحدة ، وإن لم يتفقوا في مسألة واحدة من المسائل التي يسعها الرأي والرأي الآخر .

كما نجد صورة رائعة من ذلك أيضاً تتجلى في موقف الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ الذي لم يمنعه اختلافه في الرأي مع من خالفه الرأي ، من أن يقوم مودعاً له آخذاً بركاب دابته .

جاء في كتاب « صفحات في أدب الرأي » : [ومن الأمثلة الرائعة أيضاً : ما أسنده ابن عبد البر في « جامع بيان العلم » ٢ : ١٠٧ إلى العباس بن عبد العظيم العنبري المتوفى سنة ٢٤٠ هـ أحد الثقات الحفاظ الكبار ، وروى عن الإمام أحمد وشاركه في الرواية عن بعض شيوخه ، قال : (كنت عند أحمد بن حنبل وجاءه علي بن المديني راكباً على دابته ، فتناظرا في الشهادة ، وارتفعت أصواتهما حتى خفت أن يقع بينهما جفاء ، وكان أحمد يرى الشهادة ، وعلي يأبى ويدفع ، فلما أراد علي الانصراف قام أحمد فأخذ بركابه . ! !)][2]

الشافعي ومحمد بن الحكم رحمهما الله

إنه النموذج الذي يعبر فيه أصحابه عن أخوتهم الدعوية الراقية

---

(١) الذهبي : (ج١٠ / ١٦ ، ١٧)

(٢) محمد عوامة / ٦٧ ، ط دار القبلة للثقافة الإسلامية ـ جدة ، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م .

التي تدفعهم إلى قول الحقيقة ، ولا ينساقون وراء عواطفهم حتى يحابوا إخوانهم ، ويوافقوهم فيما يخالف الحق ، لأن هذا ليس من الوفاء في شيء لأي معنى من معاني الأخوة ، وإن بلغت درجة المحبة فيها أعلى مراتبها .

جاء في كتاب « إحياء علوم الدين » : (واعلم أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين ، بل من الوفاء له المخالفة . فقد كان الشافعي رحمه الله آخى محمد بن عبد الحكم وكان يقربه ويقبل عليه ، ويقول : ما يقيمني بمصر غيره . فاعتل محمد فعاده الشافعي ـ رحمه الله ـ فقال :

مرض الحبيب فعدته فمرضت من حذري عليه
وأتى الحبيب يعودني فبرئت من نظري إليه

وظن الناس لصدق مودتهما أنه يفوض أمر حلقته إليه بعد وفاته ، فقيل للشافعي في علته التي مات فيها رحمه الله : إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله ؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومئ له : فقال الشافعي : سبحان الله ! أيشك في هذا ؟ ! أبو يعقوب البويطي ، فانكسر لها محمد ، ومال أصحابه إلى البويطي ، مع أن محمداً كان قد حمل عنه مذهبه كله ، لكن كان البويطي أفضل وأقرب إلى الزهد والورع ، فنصح الشافعي لله وللمسلمين ، وترك المداهنة ، ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى .)[1]

وبهذا المفهوم تضع الأخوة الدعوية مَعْلماً جديداً على طريق الدعوة ، كي يتطلع إليه الدعاة ، فلا تكون منهم محاباة لأحد من أبناء دعوتهم

---

(١) الإمام الغزالي : (ج٢ / ١٦٥ ، ١٦٦)

بحيث يضعونه في غير موقعه ، مع وجود الأصلح والأكفأ لهذا الموقع ، متذرعين بالأخوة التي تربط بينهم ، لأن الأخوة يجب أن لا تطغى على الحقوق والمستلزمات ، التي تتطلبها مصلحة الأمة مجتمعة .

صلاح الدين الأيوبي رحمه الله

حين هددت الحملات الصليبية الأمة الإسلامية ، كان لا بد أن تصحو تلك الأمة من كبوتها ، وأن تفتح أعينها لترى ما حل بها ، فتعيد حساباتها ، وترص صفوفها في ظل أخوة عجيبة تجمع أبناء الدعوة الواحدة على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وطبقاتهم بحيث تلتقي جميعاً لتحمي عقيدتها ، وتدافع عن دعوتها ، تحت لواء واحد يحمله الداعية المجاهد صلاح الدين الأيوبي ـ رحمه الله ـ ، وهو كردي غير عربي .

لكن الأخوة الدعوية ترفض المعايير الجاهلية ، وتقيم بنيانها على القواعد الإيمانية . فلما كان البناء على الثوابت الصحيحة في ظل الأخوة الصادقة التي دفعت الأبطال للذود عن الحرمات والمقدسات ، كتب الله لجنده المؤمنين المتآلفين النصر على عدوهم في معركة حطين .

جاء في كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ » : (واستولى الصليبيون الأوربيون فعلاً على القدس وعلى عامة مدن الشام وقلاعه ، وطمعوا في مدينة الرسول ﷺ ، وكانوا أكبر خطر على الإسلام والمسلمين بعد فتنة الردة ، هنالك قيض الله للإسلام عماد الدين أتابك زنكي ت : ٥٤١ هـ الذي قارع الصليبيين وهزمهم في معارك كثيرة ، وفتح الرها ، وقام بعده ولده العظيم الملك العادل نور الدين محمود زنكي ت : ٥٦٩ هـ ، وصمم على إجلاء الصليبيين من الشام ، واسترداد القدس للمسلمين ، ومات رحمة الله عليه قبل أن يكمل مهمته ، وخلفه في ذلك أحد رجاله ومرشحيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن

أيوب ملك مصر ، وهو الرجل الذي هيأه الله لهذه المهمة العظيمة . . . وقد اجتمع تحت لواء صلاح الدين للجهاد أجناس كثيرة بعد مدة طويلة . . . وهزم الصليبيين في معركة حطين عام ٥٨٣ هـ هزيمة منكرة ، وكسر شوكتهم ، وفتح القدس في نفس العام ، واستولى على فلسطين كلها ، وانحصر الصليبيون في صور فقط .)[١]

ثم إن المؤلف نقل إلينا عن مؤرخ انكليزي شهادته بوحدة الأمة وأخوتها تحت قيادة صلاح الدين التي كان لها الفضل في هذا النصر العظيم ، ذلك المؤرخ هو Stanley Laue : (لقد وقف العالم المسيحي وقفة رجل واحد إزاء المسلمين ، ولكنه لم يستطع أن يزحزح صلاح الدين عن مكانه . . . لقد كان الإخوة والأبناء ، وأبناء الإخوان ، والزملاء القدماء ، والولاة الجدد ، والعقلاء ، والقضاة الأذكياء ، والمعتمدون الأوفياء ، والمتعصبون ، والوعاظ ، والعلماء كلهم متفقين على الجهاد ، وقاتلوا تحت لوائه ، جنباً بجنب ، وخدموه بكل ما عندهم من قوة وكفاية ونصيحة ، وكان كل يعلم أن صلاح الدين سيد الجميع وأميرهم ، وكان قلب واحد ، وإرادة واحدة تسيطر عليهم في أزمات مختلفة ، وساعات عصيبة ، وحروب طاحنة ، هو قلب صلاح الدين القوي وإرادته الحديدية .)[٢]

وهكذا تتجلى الأخوة الدعوية بأروع صورها ، فتجمع الأمة المؤمنة بكل أجناسها وألوانها وطبقاتها ، تحت قيادة واحدة ، لا تعرف العصبية البغيضة ، بكل ألقابها ومعاييرها ، وإنما تلتقي على الإخاء والوداد ، لتدافع عن إيمانها ودعوتها . وهذا ما جاء على لسان أحد أعدائها ،

---

(١) أبو الحسن الندوي / ١٣٨ - ١٤١ .

(٢) المرجع نفسه / ١٤٠ ، ١٤١ .

والخير ما شهدت به الأعداء . فكان أن حقق الله لهذه الأمة آمالها ، وأعز جندها ، ونصر دينها .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[1]

الإمام النووي رحمه الله

لقد كان الإمام النووي ـ رحمه الله ـ علماً من أعلام الأمة وعلمائها الأفاضل ، وقد نما عنده الإحساس بالأخوة التي تربطه بإخوانه من أبناء دعوته ، نظراً لكثرة عبادته التي تنمي هذا الشعور بالأخوة وتهذبه ، وتجعل المسلم الداعية يعبد الله تلك العبادة بمفهومها الواسع الشامل ، بحيث تنظم علاقته بإخوانه ، وتجعله يعيش آمالهم وآلامهم ، كعضو في جسدهم لا يمكنه الفكاك عنه .

جاء في كتاب « مقومات المجتمع المسلم » : (ومن ثم تكون الشعائر التعبدية المتمثلة في الصلاة والصيام والصدقة والنسك جزءاً من العبادة ، وليست هي كل العبادة .

والعبادة الحقة هي الحياة وفق النظم الإلهية التي تحدد علاقة الإنسان بالإنسان في المجتمع علاوة على توجيه النية لله وحده في الشعائر التعبدية .)[2]

فالسلوك الاجتماعي النظيف ، والعلاقات الأخوية المحببة ، هي العبادة بمفهومها الواسع .

---

(١) من سورة الحج : (الآية / ٤٠) .

(٢) د . الدسوقي / ١١١ ، مكتبة فرقد الخاني ـ الرياض ، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م ، وقد حاز الكتاب على جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية .

جاء في كتاب « مبادئ الإسلام » : (هذه هي العبادة ، وهذا هو معناها الحقيقي . وما غرض الإسلام إلا أن يجعل الإنسان يعبد الله مثل هذه العبادة ، في كل حين من أحيانه ، وقد افترض عليه لهذا الغرض مجموعة من العبادات تهيئه لهذه العبادة الكبيرة . فكأنه ليست هذه العبادات المفروضة إلا بمثابة التربية للعبادة الكبيرة المنشودة . فكل من يتلقى هذه التربية على أحسن وجه ، يؤدي العبادة الحقيقية على الوجه المراد .)[1]

هذا وقد أحببت أن أقف عند هذه الحقيقة في هذا النموذج بالذات ، ليتضح بأن علمنا النووي ـ رحمه الله ـ لم تكن عبادته التي عرف بها ، لتحول بينه وبين معاني الأخوة التي تربطه بإخوانه ، وتجعله يتحسس همومهم وآلامهم ، وإنما كانت تلك العبادة التي اشتهر بها دافعاً لنمو السلوك الاجتماعي الحبيب الأليف ، ولنمو تلك المعاني الأخوية الدعوية التي تربطه بإخوانه من أبناء دعوته ، لأن الدين هو الحياة .

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[2]

جاء في كتاب « المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي » حينما نجد الإمام النووي ـ رحمه الله ـ وهو ينطلق ليحقق تلك المعاني الأخوية ، فيدافع عن إخوانه من أبناء دعوته ، موجهاً رسالة إلى السلطان يقول فيها : (وقد بلغ الفقهاء ، بأنه رُسم في حقهم بأن يغيروا عن وظائفهم ، ويُقطعوا عن بعض مدارسهم ، فتنكَّدت بذلك أحوالهم ، وتضرروا بهذا التضييق عليهم ، وهم محتاجون ولهم عيال ، وفيهم الصالحون

---

(١) المودودي / ١٠١ ، ١٠٢ ، ط الدار السعودية ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م .

(٢) من سورة الأنفال : (الآية / ٢٤) .

والمشتغلون بالعلوم ، وإن كان فيهم أفراد لا يلتحقون بمراتب غيرهم ، فهم منتسبون إلى العلم ومشاركون فيه ، ولا تخفى مراتب أهل العلم وفضلهم ، وثناء الله تعالى عليهم ، وبيانه مزيتهم على غيرهم ، وأنهم ورثة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وأن الملائكة عليهم السلام تضع أجنحتها لهم ، ويستغفر لهم كل شيء حتى الحيتان . . . واللائق بالجناب العالي إكرام هذه الطائفة ، والإحسان إليهم ، ومعاضدتهم ، ودفع المكروهات عنهم ، والنظر في أحوالهم بما فيه من الرفق بهم .)[1]

وبهذا الموقف الشجاع في هذه الرسالة ، وبغيرها من الرسائل التي كان يوجهها الإمام النووي رحمه الله للحكام ، ويشرح فيها أوضاع إخوانه الدعاة ، بل وأوضاع كل أبناء أمته ، يعبر الشيخ عن أسمى معاني الأخوة الدعوية ، التي كانت تربطه بأبناء دعوته وأمته .

ابن تيمية رحمه الله

إن الداعية الحق هو الذي تتملكه معاني الأخوة الدعوية فتأسره ، حتى إذا حزب إخوانه أمر جلل ، وحلت بساحتهم ظروف عصيبة ، وجد من واجبه أن يجند نفسه للدفاع عنهم وعن حرماتهم ومقدساتهم ، باذلاً في سبيل ذلك قصارى جهده ، دون أن يدع أمته تستسلم لليأس ، بعد أن يجد طريقه للفرار ، مع بعض من تتوفر لهم سبل الفرار بشكل أو بآخر ، ولا يكتفي بالصبر والتحمل ، ما دامت هناك طرق يمكن أن تسلك للإعداد الصحيح الذي يتحقق معه الدفاع المشروع بشكل يوفر الكرامة ويحفظ ماء الوجه .

---

(١) الحافظ شمس الدين السخاوي . مكتبة دار التراث ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م ، تحقيق الدكتور : محمد عيد الخطراوي .

جاء في كتاب « التاريخ الإسلامي » : (لذا كان أبناء العقيدة الواحدة إخوةً بحق ، فهم أكثر تفاهماً بعضهم مع بعض من أشقائهم وأقربائهم ، وأكثر صدقاً ، وأكثر محبة ، وأكثر رعاية وحَدَباً بعضهم على بعض . . . فالمسلم الصادق لا يريد لنفسه شيئاً إلا ويحبه لأخيه ، ومن ذلك نشأ المجتمع المسلم المتراص بعضه إلى بعض ، إن خرج أبناؤه إلى الجهاد لم يحدث فيه خلل ، وإن حلت به مجاعة أو أصابته نائبة لم يتأثر داخله لما فيه من تعاون بين أفراده ولبناته ، ولما يتم من مساعدة بين أسره وعائلاته ، بل وبين المسؤولين والرعية . . . فلننظر التطبيق عندما يبدأ القتال ، وكيف يجود الإنسان المسلم بنفسه لينقذ أخاه في العقيدة ، وكيف يضحي بأبيه وأخيه وأقربائه جميعاً ليحمي عقيدته ، ويدافع عنها ، وكيف يقف بجانب إخوانه في العقيدة ضد أهله وعشيرته ما داموا يخالفونه في العقيدة .)[1]

ولقد مثّل الداعية ابن تيمية ـ رحمه الله ـ هذا النموذج أصدق تمثيل ، حين فضل أن يبقى بين إخوانه من أبناء أمته ، ليؤدي واجبه الدعوي في ظل روابط الأخوة الدعوية ، التي جعلت منه عضواً نشطاً في جسد أمته ، وذلك بعد أن ترك كثير من الأعيان والعلماء دمشق خوفاً من بطش التتار .

جاء في كتاب « البداية والنهاية » : (وقد هرب جماعة من أعيان البلد وغيرهم إلى مصر ، كالقاضي إمام الدين الشافعي ، وقاضي المالكية الزواوي ، وتاج الدين الشيرازي ، وعلم الدين الصوابي والي البر ، وجمال الدين بن النحاس والي المدينة ، والمحتسب وغيرهم من التجار والعوام ، وبقي البلد شاغراً ، ليس فيهم حاكم سوى نائب القلعة ، . . .

فاجتمع أعيان البلد والشيخ تقي الدين بن تيمية في مشهد عليّ ،

---

(١) محمود شاكر ـ ٩ / ٧٢ ـ ٧٥ ، المكتب الإسلامي ـ بيروت ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٦ م .

واتفقوا على المسير إلى قازان لتلقيه ، وأخذ الأمان منه لأهل دمشق ، فاجتمعوا به عند النبك ، وكلمه الشيخ تقي الدين كلاماً قوياً شديداً فيه مصلحة عظيمة ، عاد نفعها على المسلمين ولله الحمد .)[1]

لكن لما لم تتوقف وحشية التتار ، وتحقق عزمهم على غزو بلاد الشام ومصر طاش الناس ، وشرعوا في الهرب ، إلا أن ابن تيمية أخذ يثبتهم ، ويقف إلى جانبهم .

جاء في كتاب « البداية والنهاية » : (وجلس الشيخ تقي الدين بن تيمية في ثاني صفر بمجلسه في الجامع ، وحرض الناس على القتال ، وساق لهم الآيات والأحاديث الواردة في ذلك ، ونهى عن الإسراع في الفرار ، ورغب في إنفاق الأموال في الذب عن المسلمين وبلادهم وأموالهم ، وأن ما ينفق في أجرة الهرب إذا أنفق في سبيل الله كان خيراً .)[2]

في هذا النموذج تبرز شخصية ابن تيمية ، وتبرز أخوته الدعوية التي جعلته يرفض الفرار ، حتى لا يخلف وراءه إخواناً له يتعرضون لألوان الظلم والقهر والتسلط ، في وقت يمكن فيه أن يجد النجاة لنفسه .

لكن هذا لا يعني أن الموقف الجريء الذي اتخذه ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يطعن في أولئك العلماء الذين كان لهم رأي آخر ، لعلهم بنوه على الترخص المسموح به ، ما دام ليس هناك إمام يرفع الخلاف ، وليس هناك

---

(١) ابن كثير : (ج١٤ ، ٨) ، وانظر أبو الحسن الندوي ، رجال الفكر والدعوة في الإسلام ـ الجزء الثاني / ٤١ ، ط دار القلم ـ كويت ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م ، وانظر بحث نشر في مجلة « هذه سبيلي » بعنوان « الداعية المجاهد : شيخ الإسلام ابن تيمية » بقلم الدكتور محمد عبد العليم العدوي . جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية عام ١٤٠٢ هـ .

(٢) المرجع نفسه : (ج١٤ / ١٦) ، وانظر : الندوي ، رجال الفكر والدعوة في الإسلام ـ الجزء الثاني / ٤٩ .

أهل للحل والعقد يتخذون قرارهم مجتمعين أو بأغلبيتهم ، مؤكدين هذا الرأي أو ذاك ، وما دمنا كذلك لم نستمع إلى حجة ودليل أولئك النفر من أصحاب الرأي الآخر . فلعل لديهم دليلاً أو شبهة دليل ، تمنع من تناولهم بسوء ؛ وإن كنا نكبر في ابن تيمية ـ رحمه الله ـ هذا الموقف الشجاع الذي دفعه إلى البقاء إلى جوار إخوانه ، كي يحثهم ، ويشجعهم ، ويحمل السلاح معهم ، حتى يقضي الله فيهم أمره ، وهم مجتمعين متعاونين ، مقبلين غير مدبرين . وفي الوقت نفسه نحسن الظن بالآخرين ، فنحترم رأيهم ، وندفع عنهم ، لأننا لم نطلع على حججهم ، ولم نعرف حقيقة ظروفهم . فهذا أدعى للحفاظ على الأخوة في المسيرة الدعوية ، تلك الأخوة التي تعتبر مطلباً هاماً من مطالبها ، وركناً عظيماً من أركانها .

العز بن عبد السلام رحمه الله

ونموذج لا يقل شجاعة وأخوة عن سابقه ، إنه نموذج العز بن عبد السلام ـ رحمه الله ـ .

جاء في كتاب « قوارب النجاة في حياة الدعاة » : (فعندما استعان إسماعيل بالصليبيين ، وسمح لهم بدخول دمشق وشراء السلاح ، واستعان بهم على قتال أخيه نجم الدين هبَّ العز بن عبد السلام في وجه الخيانة ، وأفتى بتحريم بيع السلاح لهم ، وفي خطبة له على منبر المسجد الأموي بدمشق أعلن آراءه بكل صراحة ، وشدد في الإنكار على السلطان ، وعلى سياسته وخيانته ، ثم دعا بدعاء قال فيه : « اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد يعز فيه أولياؤك ويذل فيه أعداؤك ، ويعمل فيه بطاعتك وينهى فيه عن معصيتك . »

وعندما أشار عليه المسلمون بأن يغادر البلاد وينجو بنفسه من بطش السلطان قال : والله لا أهرب ولا أختبئ ، وإنما نحن في بداية الجهاد ، ولم

نعمل شيئاً بعد ، وقد وطنت نفسي على احتمال ما ألقى في هذا السبيل ، والله لا يضيع عمل الصابرين .)[1]

وهكذا رفض العز ـــ رحمه الله ـــ أن يغادر البلاد وينجو بنفسه ، ليترك البلاد للفوضى والفساد ، وقرر أن يبقى مع إخوانه من أبناء أمته ودعوته مدافعاً عنهم ، وعن كرامتهم ، حتى لا تعبث بهم يد غادرة ماكرة ، مهما بلغ حجم التضحية ، ولو كلفه ذلك روحه الغالية .

حسن البنا رحمه الله

وهنا سوف نقلب صفحات التاريخ سراعاً ، لنصل إلى الأخوة الدعوية التي تعيش قريباً منا ، ولا تزال آثارها وبصماتها خير شاهد على ذلك .

ولعلنا لا نجانب الحقيقة ، إذا اعتبرنا الإمام حسن البنا ـــ رحمه الله ـ أحد أعلام هذه الأخوة الدعوية ، وأحد أركانها البارزين ، بصرف النظر عن كل ما قيل ويقال عن الرجل ، وعن جماعته من بعده ، وعن مدى التزامها بمبادئه أو خروجها عليها ، لأن لهذا الموضوع ميداناً آخر غير هذا الميدان . وحسبي هنا فقط أن أقف عند الجانب الأخوي للدعوة ، التي كانت تتملكه ـ رحمه الله ـ في حركته وانطلاقته ، وهو ما يعنيني في هذا البحث دون سواه .

جاء في كتاب « مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا » : (ونحب كذلك أن يعلم قومنا أنهم أحب إلينا من أنفسنا ، وأنه حبيب إلى هذه النفوس أن تذهب فداء لعزتهم إن كان فيها الفداء ، وأن تزهق ثمناً لمجدهم وكرامتهم ودينهم وآمالهم إن كان فيها الغناء . وما أوقفنا هذا الموقف منهم إلا هذه العاطفة التي استبدت بقلوبنا ، وملكت علينا مشاعرنا ،

---

(١) د . فتحي يكن / ٤٥ ، ٤٦ . مؤسسة الرسالة ـ بيروت ، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

فأقضت مضاجعنا ، وأسالت مدامعنا . وإنه لعزيز علينا جد عزيز أن نرى ما يحيط بقومنا ، ثم نستسلم للذل أو نرضى بالهوان أو نستكين لليأس ، فنحن نعمل للناس في سبيل الله أكثر مما نعمل لأنفسنا ، فنحن لكم لا لغيركم أيها الأحباب ، ولن نكون عليكم يوماً من الأيام .)[1]

هكذا تفعل الأخوة الدعوية بأبنائها ، وهكذا تصنع رجالاتها ، وإذا أردنا أن نقف على آثار تلك الدعوة في أبنائها ، وعلى مدى ما حققته فيهم واقعاً وسلوكاً ، فما علينا إلا أن نرجع إلى مجموعة الرسائل وهي تتحدث عنهم ، وهم يتفانون في خدمة دعوتهم ، ويضحون بأوقاتهم وأموالهم ، ويذهلون عن أبنائهم وأهليهم من أجل إخوانهم .

وجاء في مجموعة الرسائل للبنا أيضاً : (يتساءل كثير من إخواننا الذين أحببناهم من كل قلوبنا ، ووقفنا لخيرهم ، والعمل لمصلحتهم الدنيوية والأخروية جهودنا وأموالنا وأرواحنا ، وفنينا في هذه الغاية ، غاية إسعاد أمتنا وإخواننا أموالنا وأنفسنا ، وذهلنا في سبيلهم عن أبنائنا والحلائل . وكم أتمنى أن يطلع هؤلاء الإخوان المتسائلون على شباب الإخوان المسلمين وقد سهرت عيونهم والناس نيام ، وشغلت نفوسهم والخَلِيُّون هجَّع ، وأكب أحدهم على مكتبه من العصر إلى منتصف الليل عاملاً مجتهداً ومفكراً مجداً ، ولا يزال كذلك طول شهره ، حتى إذا ما انتهى الشهر جعل مورده مورداً لجماعته ، ونفقته نفقة لدعوته ، وماله خادماً لغايته ، ولسان حاله يقول لبني قومه الغافلين عن تضحيته : لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الله ، ومعاذ الله أن نمنَّ على أمتنا فنحن منها ولها ، وإنما نتوسل إليها بهذه التضحية أن تفقه دعوتنا ،

---

(١) حسن البنا ـ الجزء الأول / ٢١ . الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م .

وتستجيب لندائنا .)[1]

وإذا أردنا أن نسبر الأغوار ، ونتأكد من صدق الرجل في دعواه ، وتطبيق ذلك على نفسه أولاً ، ليكون القدوة فيما يدعو الناس إليه ، فإن علينا أن نستمع إلى من عرفه وعاصره وخالطه ، ليروي لنا قصة تقديم روحه في مصرعه في سبيل دعوته ، وتفضيل معالجة صهره الذي أصيب معه على نفسه .

جاء في مجلة الأمة القطرية مقال بعنوان « من سير الرجال ـ حسن البنا رحمه الله ـ » : (و « حسن البنا » كما عرفته عاش داعية للإسلام ، وداعية للمحبة . أما محبة الناس له ، فلم أجد لها نظيراً مدى ما عشت من سنوات ، ولست بالناسي ولا المستثني . . وأما قدرته هو على المحبة ، فأمثلتها لا تحصى ، بحسبي أن أذكر منها واحداً حين ضرب بالرصاص هو وصهره الأستاذ عبد الكريم منصور في سيارة « التاكسي » ورغم أنه كان المصاب بالإصابة البليغة والقاتلة ، فما كان يفوته أبداً كلما اقترب منه المسعفون أو الأطباء إلا أن يصرفهم قائلاً : « شوفوا الأستاذ عبد الكريم » وفي مثل هذا الموقف العصيب مِحكٌّ صادق للمحبة والإيثار .)[2]

وجاء في كتاب « قوارب النجاة في حياة الدعاة » : (وذنب الإمام الشهيد أنه صفع بالحق وجوه العبيد ، ودعا لإخراج الناس من عبودية الطغاة والدوران في فلك الاستعمار إلى عزة الإسلام وعبادة الله الواحد القهار ، فكان جزاؤه بضع رصاصات اخترقت جسده في وضح النهار .)[3]

---

(١) المرجع نفسه / ١٧ .

(٢) مجلة الأمة : إسلامية ـ شهرية ـ جامعة . العدد الخامس والخمسون ، مقال من سير الرجال للدكتور : حسان حتحوت / ٢٦ رجب ، ١٤٠٥ هـ آذار (إبريل) ١٩٨٥ م .

(٣) د . فتحي يكن / ٤٧ .

وفي عام ١٩٥٤ م سيق العالم الجليل عبد القادر عودة إلى حبل المشنقة ، كما يساق القتلة والمجرمون ، لأنه لم يرض الدنية في دينه ، وقال للطغاة : لا ، يوم كانت الهامات تنحني لهم رهباً ورغباً . وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول : « إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم : يا ظالم ، فقد تودع منها »[١]

فحينما تواجه الدعوة إلى الإسلام الإرهاب والسجون والمشانق ، وتصبح جهاداً ثقيلاً وتضحية ، حينئذ يجد الجد وينتهي اللهو واللعب ، ويتميز الذين يفهمون الدعوة جهاداً مريراً وتضحية في سبيل الله بكل نفيس ، من الذين يريدونها حياة هادئة من غير بذل ولا عطاء ، وكأنهم نسوا قول الله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾[٢])[٣]

والنماذج على هذه الأخوة الدعوية كثيرة في الدعوات المعاصرة التي تعيش في أرجاء المعمورة ، والتي ضرب أبناؤها أروع الأمثلة في هذا الجانب .

ولكن ليس هناك من سجلها في كتاب مستقل يجمعها ، ليستودعها في ذاكرة التاريخ ، حتى تتصفحها الأجيال ، وتستشعر عظمة هذا الدين الذي يصنع هذه النماذج الأخوية الفريدة ، بشكل لا نظير له بين أمم

---

(١) رواه أحمد ، والبزار والطبراني وأحد أسانيد البزار رجاله رجال الصحيح ولفظه : « إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له أنت الظالم فقد تُوُدِّعَ منهم » . مجمع الزوائد للهيثمي : (ج٧ / ٢٧٣) .

(٢) من سورة البقرة : (الآية / ٢١٤) .

(٣) د . فتحي يكن / ٤٩ .

الأرض قاطبة .

ولعل في بعض ما علق في ذاكرة الناس وتناقلوه من هذه النماذج ما يكفي ليكون نموذجاً في هذا المقام .

من ذلك موقف أحد الدعاة الذي أراد أحد السجان أن يُدخل إليه في غرفته المنفردة مدفأة يتدفأ بها نظراً للبرودة الشديدة يومها ، ولكبر سنه ، أو لاعتبارات أخرى لا نعلمها ، فرفض قبولها بعد أن علم أنها لم تقدم لكل سجين مثله ، وإنما هي خاصة به فقط .

وموقف آخر يمثله شيخ فاضل يُعرض عليه الخروج من السجن فيأباه ، ويشير إلى آخرين معه ، ليخرجوا بدلاً منه ، لأنهم في نظره أحوج إلى الخروج منه ، نظراً لظروفهم الصحية القاسية ، ولظروف أبنائهم وأهليهم وحاجتهم إلى من يعيلهم .

وموقف آخر يمثله شاب جلد في بعض السجون يقدم نفسه رخيصة فداء لإخوانه الذين ليست لهم قدرة على تحمل التعذيب لرقتها ونعومتها ، فيقوم بدلاً منهم ، ليتلقى نصيبهم من العذاب في سبيل الله ، حين يراد بهم ذلك .

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ، وتجارب الدعاة واحدة أو متقاربة ، في كل بقعة يحارب فيها الإسلام وأهله في عصرنا الحاضر ، وهم يسجلون من الصور الرائعة التي تعبر عن صدق أخوتهم الدعوية ما الله به عليم ، وما خفي من هذه الصور ، فلم يذكره لسان ، ولم يسطره قلم أكثر مما علم .

والله الذي لا تخفى عليه خافية ، ولا تضيع عنده الودائع سوف يوفّي هؤلاء أجورهم يوم يفدون عليه سبحانه بأحسن ما كانوا يعملون .

إن النماذج الأخوية في أي جانب من جوانبها تلتقي في حقيقتها

مع الأخوَّة الدعوية ، وترفدها في كل ينابيعها ، لأنها تغرس الألفة والمودة بين الإخوة أبناء الدعوة الواحدة ، وتجعل مسيرتهم المباركة أكثرعطاء ، وتمهد السبيل لتقبُّل دعوتهم ، وتذليل كل العقبات التي تحول دون ألفتهم ووحدتهم . إذ كثيراً ما تتمرد النفس البشرية على قبول دعوة الحق والخير ، لا لشيء ، إلا لأن صاحب تلك الدعوة أساء يوماً إلى أحد معاني الأخوّة ، فعكَّر صفاء الألفة والوداد . وكثيراً ما تستجيب النفس لنداء الحق ، وتنصاع لداعي الخير ، لمجرد أن صاحب تلك الدعوة تملكها بالإحسان إليها .

وأحسن إلى الأحرار تملك رقابها فخيرُ تجارات الكرام اكتسابُها[1]

وعليه فإنه يحسن بنا أن نقف عند بعض هذه النماذج الأخوية المشرقة التي يعين ذكرها على نماء الأخوة الدعوية ، ويصل بها إلى غايتها إن شاء الله .

جاء في كتاب « الفوائد » : (ودخلوا على بشر الحافي في يوم شديد البرد وقد تجرَّد وهو ينتفض ، فقالوا : ما هذا يا أبا نصر ؟ فقال : ذكرت الفقراء وبردهم ، وليس لي ما أواسيهم في بردهم .)[2]

وجاء في كتاب « سمير المؤمنين » : (حكي أن عبد الله بن عامر اشترى من خالد بن عقبة داره بتسعين ألف درهم ، وكانا جارين . فلما كان من الليل ، سمع عبد الله بن عامر بكاء أهل خالد ، فقال عبد الله لزوجه : ما هذا البكاء ؟ قالت : يبكون لدارهم ، ولولا الحاجة ما باعوها . فقال : يا غلام ائتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم .

---

(١) ديوان الإمام الشافعي / ٢١ ، ط المكتبة الشعبية ، لبنان – بيروت ، بدون تاريخ .

(٢) ابن القيم / ١٦٧ .

وحكي أن رجلاً أتى صديقاً لـه ، فـدق عليـه البـاب . فقـال : أهـلاً وسهلاً ما جاء بك ؟ قال : علي أربعمائة درهم ديـن . فدخـل مسـرعاً ، وأخرج أربعمائة درهم ، ثم عـاد يبكـي . فقـالت امرأتـه : لَمَ أعطيتـه إذا شق عليك ذلك ؟ فقال : إنما أبكي لأني لم أتفقد حالـه حتـى احتـاج إلى مفاتحتي .)[1]

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس[2]

وجاء في « إحياء علوم الدين » : (وجاء فتح الموصلي إلى منزل لأخ له وكان غائباً ، فأمر أهله ، فأخرجت صندوقه ففتحته ، وأخذ حاجتـه ، فأخبرت الجارية مولاها ، فقال : إن صدقتِ فأنتِ حرة لوجه الله سـروراً بما فعل .

وجاء رجل إلى أبي هريرة رضي الله عنه وقال : إني أريـد أن أواخيـك في الله ، فقال : أتدري مـا حـق الإخـاء ؟ قـال : عرفـني . قـال : أن لا تكـون أحـق بدينارك ودرهمك مني . قال : لم أبلغ هذه المنزلة بعد . قال : فاذهب عني .)[3]

وجاء في « إحياء علوم الدين » أيضاً : (وعن بعض السلف أنـه كـان بواسط ، فجهز سفينة حنطة إلى البصرة ، وكتب إلى وكيله ، بع هذا الطعام يوم يدخل البصرة ، ولا تؤخره إلى غد ، لتوافق سعة في السعر ، فقـال لـه التجار : لو أخرته جمعة ربحت فيه أضعافه ، فأخره جمعة ، فربح فيـه أمثالـه ، وكتب إلى صاحبه بذلك ، فكتب إليه صاحب الطعام : يـا هـذا إنـا كنـا

---

(١) محمد الحجار / ٢٨٢ ـ ٢٨٣ ، مكتبة دار الدعوة ، سورية ـ حلب ، ١٤٠٣ هـ .

(٢) البيت للحطيئة ، العقد الفريد للأندلسي : (ج١ / ٢٢٧)

(٣) الإمام الغزالي : (ج٢ / ١٥٣)

قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا ، وإنك قد خالفت ، وما نحب أن نربح أضعافه بذهاب شيء من الدين ، فقد جنيت علينا جناية ، فإذا أتاك كتابي هذا ، فخذْ المال كله ، فتصدق به على فقراء البصرة ، وليتني أنجو من إثم الاحتكار كفافاً لا عليَّ ولا لي)[1] . . . إلى أن قال ـ رحمه الله ـ : (فقد كان في صالحي السلف من له دفتران للحساب ، أحدهما ترجمة مجهولة فيه أسماء من لا يعرفه من الضعفاء والفقراء ، وذلك أن الفقير كان يرى الطعام أو الفاكهة ، فيشتهيه ، فيقول : أحتاج إلى خمسة أرطال مثلاً من هذا ، وليس معي ثمنه ، فكان يقول : خذه واقض ثمنه عند الميسرة ، ولم يكن يُعَدُّ هذا من الخيار ، بل عُدَّ من الخيار من لم يكن يثبت اسمه في الدفتر أصلاً ، ولا يجعله ديناً ، لكن يقول : خذ ما تريد ، فإن يَسُرَ لك فاقضِ ، وإلا فأنت في حل منه وسعة ، فهذه طرق تجارات السلف وقد اندرست . . .

لا يغرنْك من المر ء قميصٌ رقعهْ
أو إزار فوق كعب الس ساق منهُ رفعهْ
ولدى الدينار فانظر غَيَّه أو ورعهْ[2]

وجاء في كتاب « الأخوة الإسلامية » : (وكان عبد الله بن المبارك الإمام الكبير المحدث كثير الصدقات تبلغ صدقاته في السنة أكثر من مائة

---

(١) المرجع نفسه : (ج٢ / ٦٦)

(٢) المرجع نفسه : (ج٢ / ٧٥) ، والأبيات من مجزوء الرمل أي الذي حذفت من كل شطر فيه تفعيلة ، فبقي البيت على أربع تفعيلات بدل ست تفعيلات في التام . لكن يبقى في أضرب الأبيات الثلاثة خلل حيث جاءت على وزن فعلن ، والأصل في المجزوء أن تكون ضربه صحيحة : فاعلاتن ، أو صحيحة مسبغة : فاعلاتان ، أو محذوفة : فاعلن . أما العروض فتكون صحيحة فقط : فاعلاتن . انظر ، علم العروض والقافية للدكتور عبد العزيز عتيق ، ط دار النهضة العربية ـ بيروت ، ١٩٦٧ م .

ألف دينار ، فخرج مرة إلى الحج مع أصحابه ، فاجتاز ببعض البلاد ، فمات طائر ، فأمر بإلقائه على مزبلة هناك ، وسار أصحابه أمامه ، وتخلف هو وراءهم ، فلما مر بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها ، فأخذت ذلك الطائر الميت ، فسألها عن ذلك ، فأخبرته أنها وأخاها فقيران لا يعلم بهما أحد ، ولا يجدان شيئاً ، فأمر ابن المبارك بردِّ الأحمال ، وقال لوكيله : كم معك من النفقة ؟ قال : ألف دينار ، فقال له : عُدَّ منها عشرين ديناراً تكفينا إلى « مَرْوَ »[1] وأعطها الباقي . فهذا أفضل من حجنا هذا العام ثم رجع فلم يحج .)[2]

وبهذه النماذج الحبيبة الأليفة من الأخوة الدعوية ، تمكنت الدعوة إلى الله عز وجل من أن تشق طريقها في عنان السماء ، متخطية كل الحواجز الأرضية التي كان يضعها أعداء الله على مر العصور .

ويوم يعيد دعاة اليوم حساباتهم فيما تهدم من جدار أخوتهم ، فإنهم سيتسلَّمون الراية بكل جدارة ، ويكونون أهلاً لريادة البشرية جمعاء ، وإلا كانت الأخرى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾[3]

---

(١) مَرْوُ : هي مَرْوُ الشاهِجان : وهي مرو العظمى أشهر مدن خراسان . وهي غير مرو الروذ التي سبقت النسبة إليها للمرُّوذي صاحب الإمام أحمد . والنسبة إلى هذه مَرْوَزِيٌّ على غير قياس . وقد أخرجت مرو من الأعيان ، وعلماء الدين والأركان ، ما لم تخرج مدينة مثلهم منهم : أحمد بن حنبل ، وسفيان الثوري ، وإسحاق بن راهويه ، وعبد الله بن المبارك وغيرهم . انظر معجم البلدان لياقوت الحموي : (ج٥ / ١١٢ ـ ١١٤)

(٢) د . عبد الله علوان / ٥٣ .

(٣) من سورة محمد : (الآية / ٣٨) .

الفصل الثالث

الأخوة الدعوية تثير قضية أهل الحل والعقد

لما كان الحديث موجهاً إلى أمة الإيمان حيثما كانت من الزمان والمكان ممثلة بعلمائها ورجال فكرها ودعوتها ؛ كان لا بد لتلك الأمة أن تعرف واجبها ، وتتحمل مسؤوليتها إذا ابتليت يوماً ما ، وفي مكان ما بأناس تسلطوا على رقابها ، فحرموها من ممارسة حقوقها في أداء شعائر دينها ، وفي الإفصاح عن هويتها الإسلامية ، والتعبير عن حريتها الدينية ، لتقوم بواجب الوقت ، وتعنى بترتيب الأولويات ، فلا تنشغل بالمهم عن الأهم .

جاء في كتاب « مدارج السالكين » : (ثم أهل مقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق ، فهم في ذلك أربعة أصناف . . .

الصنف الثالث : رأوا أنفع العبادات وأفضلها : ما كان فيه نفع متعدٍّ ، فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر . . .

الصنف الرابع : قالوا إن أفضل العبادة : العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته . . .

فالأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك : أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم دون الهرب منهم . فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه . . .

فالأفضل في كل وقت وحال : إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال . والاشتغال بواجب ذلك الوقت ، ووظيفته ومقتضاه .)[1]

---

(١) ابن القيم / ٩٧ ـ ١٠٢ ، ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ، بدون تاريخ .

وأي واجب أعظم من واجب السعي لإيجاد أهل الحل والعقد المؤهلين الموثوقين الذين لديهم قدر كافٍ من تحمل المسؤولية ، ليكوّنوا مرجعية ترجع إليهم الأمة في قضاياها العامة والشائكة ، بدل أن تتخبط خبط عشواء فتضيع جهودها ؛ بل ولعلها تفقد خيرة أبنائها ، عندما تعم الفوضى وينتشر الفساد في كل جانب من جوانب الحياة .

فإذا كان هناك إمام للمسلمين فالواجب معه ، كما قال ابن حجر – رحمه الله – : (والنصيحة لأئمة المسلمين إعانتهم على ما حمّلوا القيام به ، وتنبيههم عند الغفلة ، وسد خلتهم عند الهفوة ، وجمع الكلمة عليهم ، ورد القلوب النافرة إليهم ، ومن أعظم نصيحتهم دفعهم عن الظلم بالتي هي أحسن .)[1]

لأن القيام بهذا الواجب هو الاستجابة الحقة لله ولرسوله ﷺ التي تبعث في الأمة الحياة .

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[2]

فإذا لم يكن للمسلمين دولة ولا إمام في مكان ما ، فإنه من المعلوم أن الرسول ﷺ حين تهيأت له الأسباب ، وتوفرت له الطاقات ، شرع في إقامة الدولة المسلمة المتكاملة المتوازنة في تشريعاتها الاجتماعية ، وتنظيماتها السياسية ، وترتيباتها الأمنية ، وقراراتها العسكرية ، فكان المسجد هو المنتدى لكل هذه المؤسسات التي تُمثل اليوم ما يسمى بمجلس

---

(١) فتح الباري على صحيح البخاري : (ج١ / كتاب الإيمان – ٤٢ ، ص ١٣٨)

(٢) من سورة الأنفال : (الآية / ١٢)

الشورى ، ومجلس الوزراء ، وهيئة الأركان العامة ، وما إلى ذلك . . .

جاء في كتاب « أصول النظام الاجتماعي في الإسلام » : (عندما تقومت الجامعة الإسلامية والتأم المجتمع الإسلامي بسبب الهجرة إلى المدينة كما تقدم ، وتأصلت فيهم الأخوة ، حان أن تخطط الشريعة للمسلمين النظم للمجتمع الإسلامي الكامل بعد أن تقوَّمت فيهم حالة كاملة من الصلاح الفردي .)[1]

تصوير الواقع وحاجة الأمة للقيادة المؤهلة :

إن واقع الأمة اليوم لا يمثل ما ينبغي أن تكون عليه في كل جانب من جوانب الحياة الفاعلة ، وهي لذلك ليست كما أراد لها ربها أن تكون حين اختارها لقيادة البشرية ، وخصها بالفضل والخيرية حين قال سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[2]

إن هذا الواقع المؤلم للأمة لا يكاد يخفى على أحد ، وبخاصة إذا ما قورنت بأمم الأرض من حولها ، التي امتلكت كثيراً من أسباب القوة ، واستخدمتها في بسط نفوذها وسيطرتها على تلك الأمة التي تخلَّت عن مواقعها في الريادة والسيادة ، حتى صارت تلك الأمم تتدخل في كثير من شؤونها وأوضاعها ، وتتحكم في مقدَّراتها واستثمار خيراتها إلا من رحم الله وقليل ما هم .

وكان الأصل في هذه الأمة أن تكون متصدرة لمسيرة البشرية كي

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور / ١٢١ ، ط الشركة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٩ م .

(٢) من سورة آل عمران : (الآية / ١١٠)

تقودها إلى خيرها وصلاحها .

جاء في كتاب « في ظلال القرآن » : (لقد وجدت هذه الأمة لقيادة البشرية . . . لقد وجدت للقيادة : قيادة التصور الصحيح ، والاعتقاد الصحيح ، والشعور الصحيح ، والخلق الصحيح ، والنظام الصحيح ، والتنظيم الصحيح . . . ولكن القيادة الأساسية التي تسمح بهذا كله ، وتسيطر على هذا كله . . . ينبغي أن تكون للإيمان ، وأن تقوم عليها الجماعة المسلمة ، مهتدية فيها بتوجيه الله ، لا بتوجيه أحد من عبيد الله .)[1]

أجل ! إنه حين ابتعدت الأمة عن منهج الله الصحيح الصريح ، أصابها الخلل في كثير من جوانب الحياة الفاعلة .

ففي الجانب العَقَديِّ : ظهر خلل التكفير ، والتضليل ، والتبديع في أمور اجتهادية قابلة للرأي والرأي الآخر ؛ حتى إن الاختلاف الفقهي المعتبر صار جزءاً من البدعة في نظر بعضهم ، مع أنه كان يجب أن يحترم ، لتسلم للأمة ألفتها ووحدتها .

وفي الجانب التعبدي : فقد قُصِرت العبادة لدى كثير من المسلمين على أمور محددة لا تتعداها ، كما تحولت لدى بعضهم إلى عادة لا تحدث تأثيراً يذكر في واقعهم وسلوكهم .

فكان لهذا وذاك أعظم الأثر في جعل كثير من أبناء الأمة لا يبالون في قضايا أمتهم الهامة ، ولا يستشعرون عِظم الذنب الذي يرتكبونه بهذا التقصير ؛ لأنه لا علاقة للدين في نظرهم بهذا كله . حتى لقد عدَّ بعضهم هذا الاهتمام في مثل تلك القضايا خطيئة يجب أن يعاقب عليها صاحبها ، بدل أن يكون عبادة يثاب عليها فاعلها .

---

(١) سيد قطب : (ج١ / ٤٣٨)

وبذلك بقيت تلك الجوانب الخطيرة في حياة الأمة فارغة ومعطلة ، فاستولى عليها غيرُ أهلها ، لأنها أصبحت خالصة لهم من دون الناس ، بعد أن تخلى عنها أربابها الحقيقيون . ومن هنا دخل الخلل في حياة الأمة .

وفي الجانب التربوي : فقد أصاب الخلل كثيراً من قضايانا التربوية ، حتى صار ينظر إلى كثير من المفهومات الصحيحة على أنها معلومات مغلوطة ، فالصدق والأمانة والحرص على الوقت ، والتزام النظام ، والدقة في المواعيد ، والوفاء بالعهود والمواثيق ، والالتزام بالتعهدات والالتزامات ، وما إلى ذلك من المبادئ والمثل . كل ذلك أصبح ينظر إليه على أنه لا علاقة له بالدين ، والتقصير فيه لا يعني شيئاً ، ولا يمثل انتقاصاً في شخصية المسلم ، حتى أصبح كثير من العاملين يكفيه من إسلامه أن ينتسب إلى فلان من الناس ، أو جماعة من الجماعات ، ليتاجر بذلك ، ثم لا عليه بعد أن يجاهر بهذه النسبة ، ويُعرف بها أن يصدر عنه ما يصدر من خلل تجاه إخوانه المؤمنين الذين لا ينتمون لانتمائه ، وكأنهم الأميون في نظر اليهود الذين حكى القرآن حالهم في قوله سبحانه : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾[1]

لكن الخلل الأهم والأخطر في التربية الذي يصور واقعنا المؤلم هو : الضيق بالرأي الآخر ، وسيطرة مفهوم الصراع ، كما جاء في « الحركات الإسلامية في الفكر السياسي الإسلامي المعاصر » : (ولعل من أهم الثغرات الفكرية لدى الحركات الإسلامية هي تلك النظرة الثنائية للعالم

---

(١) من سورة آل عمران : (الآية / ٧٥) .

[خير وشر ، إيمان وكفر ، إسلام وجاهلية ، أنصار وخصوم ، هدى وضلال] وكان من نتائج هذه النظرة :

١ ــ أن تدفع الحركات الإسلامية غالباً إلى تدنيس الآخر أو نفيه باعتباره خصماً سواء أكان هذا الآخر فرداً أو مجتمعاً أو حاكماً أو دولة أو العالم بأكمله .

٢ ــ وتسعى كل جماعة إلى تنشئة أعضائها على نمط فكري واحدي الاتجاه والمصدر ، مما يؤدي بها إلى التعصب ضد آراء الآخرين مما يدفعها إلى العزلة عنهم والصراع معهم بل وتكفيرهم أحياناً . . .

٣ ــ إن إحدى النتائج الحتمية للضيق بالرأي الآخر هي انعدام لغة الحوار مع الآخر مما يؤدي إلى عدم إمكانية التجديد والاجتهاد الذي هو نتيجة تلاقح الأفكار وتفاعلها .

٤ ــ وهذا يطرح قضية الأمية الفكرية والدينية بسبب عدم الاطلاع على أفكار الآخرين ، مما يقود إلى التعصب والتطرف واللجوء إلى العنف والقوة من أجل تغيير المجتمع بما يتفق مع آراء الجماعة وتصوراتها ، ودون مراعاة لآراء وتصورات الآخرين . . .)[1]

لكن هذا الخلل في الأمة لا يقف عند جانب دون آخر ، وإنما يمتد ليصيب الأمة في كثير من جوانبها الحيوية ، كالجانب الاجتماعي الذي انتشرت فيه الأمراض الخلقية ، وتفككت معه الروابط الأخوية ، وكالجانب الاقتصادي الذي استمرأ فيه بعضهم أكل الربا وسَمَّوْه بغير اسمه ، والذي ظهر فيه فساد المعاملات المادية في البيع والشراء ، وفي كثير

---

(١) د . محمد فريد حجاب / ٤١ ، ٤٢ ، والدكتور محمد باحث وأستاذ جامعي في جامعة الإمارات ــ قسم العلوم السياسية .

من العلائق التجارية التي لا تنتهي غالباً إلا بصورة مؤلمة من صور الخصومة والاتهام بين أصحابها .

وظهر كذلك في التحايل على دفع الزكاة ، وفي اختلاق الأعذار لعدم سداد الدين في أجله المحدد له حتى لا تكاد تنتهي عملية مداينة إلا بالخصومات واللجوء إلى المحاكم ، ليكون الشقاق مكان الألفة والوداد ، وهكذا وهكذا مما لا مجال للتوسع فيه في هذا المبحث .

وإذا كان الأمر كذلك ، فإن الأمر جد خطير . وهو أحوج ما يكون إلى قيادة حكيمة ترشد المسيرة في ظروفها الصعبة الحالية ، لتعيد البناء على قواعد صلبة .

لكن الأمر يبلغ غايته من السوء إذا وجد الخلل في القيادة التي يراد لها أن تعالج الخلل في نفوس الذين ينتمون إليها ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه .

ومن هنا بات ضرورياً أن يكون للأمة قيادة حكيمة رشيدة مؤهلة يحدوها الأمل الباسم لتحقيق الآمال الجسام ، دون أن يسيطر عليها اليأس أو الإحباط بسبب ما تراه أوتحسه من واقع مؤلم .

جاء في كتاب « نظرات في مسيرة العمل الإسلامي » : (إن الوقوف عند حدود الرفض والإدانة لواقع الأمة ، والاكتفاء بالخطب الطنانة الرنانة لم ولن يغير شيئاً من هذا الواقع ، وإنما ينقلب إلى حالة سلبية لا يحسن صاحبها غيرها . . . المطلوب : فقه التعامل مع المجتمع لإنقاذه ، وليس التعاون معه على الباطل ، أو النكوص عن الدعوة والهروب من الساحة ، والحكم على الناس غيابياً .)[1]

---

(١) عمر عبيد حسنة / ١١٧ ، ١١٨ .

فالمشكلة هي في اختيار النخبة المختارة المؤهلة علماً وفضلاً ، وتجربة ، وحنكة ودراية وفهماً ، وعمقاً ، من عباقرة الأمة الموهوبين ، والمتخصصين في كل مجالات الحياة الفاعلة ، الذين يمتلكون قدرة كافية على تحمل المسؤولية ، والتضحية في أحلك الظروف وأقساها ، ويتمتعون بأعلى درجات الثقة في أمتهم ، في ماض مشرق ، وواقع مشرِّف ، وتطلع نحو مستقبل أفضل .

جاء في كتاب « إحياء فقه الدعوة ـ العوائق ـ الكتاب الثاني » : (وذو النظر الجزئي يصرف المقصود بهذه الأمة إلى صنف من العاملين يبهره خيره وفضله ، فمن قائل أنهم أهل الحديث ، ومن قائل أنهم الفقهاء ، أو ثالث يرى أنهم الزهاد ، أو الأمَرَة النهاة عن المنكر . والصواب أنها الأمة المتكاملة الاختصاصات ، التي يعطي وجودها صورة حركية تفي بحاجات الإسلام المتعددة . . . ولا شك أن جماعة من أفراد تكاملت صياغة كل واحد منهم فقرن العلم بالجهاد ، والأمر والنهي بالزهد ، أرفع من جماعة أخرى يكمل اختصاص الواحد منهم اختصاص الآخر . وهذا ما يضع الجماعة المتصدية للقيام بأمر الله أمام واجب التربية الجماعية التي تأخذ من خير هذا ليشاركه هذا ، ومن خير هذا فيضفيه على هذا ، فيبطل أمر من يخالفهم ، بما سدوا من ثغرات ، قد ينفذ منها هذا المخالف إلى أحدهم فيضره .)[1]

وعليه فإن هذه النخبة المختارة التي تمثل العقل المدبر لجسد الأمة ، لا بد أن تجتمع فيها كل طاقات العاملين ممثلة بعباقرتها الموهوبين الموثوقين ،

---

(١) محمد أحمد الراشد / ٧١ ، ٧٢ ، ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت ، بدون تاريخ .

من أهل العلم والفضل ، ليكوِّنوا بمجموعهم ما لا تجتمع فيه الأمة على ضلال . وإذا كانت هنالك صفات يجب توفرها في الإمام ، فإن توفرها في نائبه من أهل الحل والعقد من باب أولى .

جاء في كتاب « غياث الأمم في التياث الظلم » : (ومن الصفات اللازمة المعتبرة الذكورة ، والحرية ، وتحيزة العقل ، والبلوغ ، . . ومما يلتحق بهذا القسم الشجاعة والشهامة ، وهي خطة علية ، ولا يصلح لإيالة طبقات الخلائق وجر العساكر والمناقب ، وعليَّات المناصب جبان خوار . . . ومن فطر على الجبن واستشعار الحذر لا يزداد إلا فرط الخور ، ثم الشهامة مرعية مع كمال العقل ، ولا يصلح مقتحم هجَّام لهذا الشأن ، وهذا المنصب إلى الرأي أحوج منه إلى ثبات الجنان . . .

فأما الصفات المكتسبة المرعية في الإمامة : فالعلم ، والورع ، . . . فأما التقوى والورع فلا بد منهما إذ لا يوثق بفاسق في الشهادة على فلس ، فكيف يولى أمور المسلمين كافة ؟ ! . . . فأما الصفة الثالثة فهي : ضم توقد الرأي في عظائم الأمور والنظر في مَغبَّات العواقب ، وهذه الصفة ينتجها تحيزة العقل ، ويهذبها التدريب في طرق التجارب .)[1]

وبذا تكتشف الأمة ضالتها حين تبحث عنها في ظل هذه الضوابط ، فتضمن سلامة مسيرتها ، وتتفادى الكثير من عثراتها . وعندها يتوجب على الأمة أن تطيع تلك القيادة المؤهلة في منشطها ومكرهها ، فيما لا يكون لله فيه معصية ، لتبلغ بذلك عزها ورفعتها .

---

(١) إمام الحرمين الجويني / ٦٥ ـ ٦٨ .

سعي الأمة لاختيار قيادتها واجب شرعي وحق أخوي :

لما كانت القيادات المتوفرة للعمل الإسلامي في هذه الأيام قد أخفقت في الغالب في تحقيق آمال الأمة وتطلعاتها سواء أكان ذلك على صعيد الجماعات التي تعنى بالتوجيه والإرشاد حيث لم يظهر أثر هذا التوجيه في السلوك النموذجي للطالب ، أو كان على صعيد الجماعات التي تهتم بالقضايا السياسية ، حيث أخفقت كذلك حين لم تصل بسياستها كغيرها إلى ما تريد ، ولم تتمكن من الصمود في وجه السياسات القائمة التي تديرها أدمغة سياسية متخصصة ، وذلك لتخلفها عن تلك السياسات التخصصية ومواجهتها بسياسات عشوائية مرتجلة .

أو كان ذلك على صعيد التنظيمات التي اختارت الكفاح المسلح طريقاً للتغيير ، فأخطأت في تقدير الحسابات السلبية ، ونتائجها الوخيمة .

وإذا كانت القيادة تتحمل الجزء الكبير من هذا الإخفاق ، فإن الخلل في تلك القيادات يكمن في سيطرة الفكر التسلطي عليها ، وإسباغ ثوب القداسة على تصرفاتها ، لأن مبدأ اختيارها إنما كان في الغالب مقتصراً على عنصر الثقة والزعامات التقليدية ، أكثر من اعتماده على عنصر الكفاءة التخصصية ، والخبرة الميدانية .

حتى إن بعض هذه القيادات مع مزيد الأسف تأثروا بفكر نيقولا مكيا فللي[1] من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، فهم لذلك يتشبثون بمناصبهم ومراكزهم بأية وسيلة يرونها ممكنة .

---

(١) ولد نيقولا مكيا فللي في فلورنسة بإيطاليا عام ١٤٦٩ م ، وصار مستشاراً بفلورنسا لمدة ثلاثة عشر عاماً ثم عزل ونفي فعاش في قرية صغيرة يقرأ التاريخ ويستخلص منه صفات الأمير الناجح التي أودعها في كتابه الأمير . وهو صاحب نظرية ـ الغاية تبرر الوسيلة ـ التي نسبت إليه وعرفت باسمه . نقلاً عن كتاب : كيف نربي أولادنا على الشورى ؟ للأستاذ خالد أحمد شنتوت .

يقول نيقولا ميكيا فللي في كتابه « الأمير » : (والحاكم الحاذق إذن لا ينبغي أن يحفل كثيراً بالوفاء عندما يكون الوفاء ضد مصالحه ، وعندما تكون الأسباب التي تضطره إلى الوفاء غير قائمة . . . ولا يعدم أمير من الأمراء أسباباً وذرائع معقولة ومقبولة لتدبير عدم الوفاء ، ويمكن لي أن أقدم بين يدي سموكم أمثلة عديدة لهذا موضحاً كم نُقِض السلام ، وكم تَحطمت وعود ، ونُقِضت عهود على يد كثير من الأمراء ، ليتضح لسموكم أن أولئك الذين تمكنوا أن يكونوا كالثعالب كان لهم النصيب الأوفر من الفوز . ولكن من الضروري التمويه وإخفاء هذه الخصلة إخفاء تاماً .)[1]

لكن الإسلام يناقض هذه النظرية الميكيافيلية ، وحرِيٌّ بأبناء دعوته أن يعرفوا تلك الحقيقة .

قال الإمام الماوردي ـ رحمه الله ـ : (وليعلم الملك أن من قواعد دولته الوفاء بعهوده ، فإن الغدر قبيح ؛ وهو بالملوك أقبح ؛ ومُضِرٌّ ، وهو بالملوك أضر ؛ لأن من لم يوثق منه بالوفاء على بذله ، ولم يتحقق منه تصديق قوله بفعله ، وَوُسِم بنقض العقود ، ونكث العهود ؛ قلَّ الركون إليه ، وكثر النفور منه وعنه .)[2]

أجل ! لما كان ذلك ، كان لا بد للأمة أن تختار قيادتها المؤهلة ، وتستبعد أولئك الذين يتخلقون بأخلاق الميكيا فيلية في تصرفاتهم ،

---

(١) الأمير / ٧٠ ، مكتبة مدبولي ، بدون تاريخ ، ترجمة علي الجوهري .

(٢) تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق المَلِك وسياسة المُلْك / ١٧٩ ، ط دار العلوم العربية ـ بيروت ، ١٩٨٧ م ، تحقيق رضوان السيد .

وتعاملهم مع أتباعهم ، لتتمكن الأمة من أن تخطو خطوتها المباركة ، وتصل إلى تحقيق أهدافها النبيلة .

جاء في « مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا » : (والمصلح الإسلامي إن رضي لنفسه أن يكون فقيهاً مرشداً يقرر الأحكام ويرتل التعاليم ، ويسرد الفروع والأصول ، وترك أهل التنفيذ يُشرِّعون للأمة ما لم يأذن به الله ، ويحملونها بقوة التنفيذ على مخالفة أوامره ، فإن النتيجة الطبيعية أن صوت هذا المصلح سيكون صرخة في واد ونفخة في رماد كما يقولون . . . فإن قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية لا يكفرها إلا النهوض ، واستخلاص قوة التنفيذ من أيدي الذين لا يدينون بأحكام الإسلام الحنيف .)[1]

وجاء في كتاب « دين ودولة » : (وكان ذلك أول الخطأ بل أكبر الخطأ ، أن تتردد في جنبات العالم الإسلامي « ما لِقيصر لقيصر ، وما لله لله » ويتردد معها فصل الدين عن الدولة . . . وكان الخطأ أشد حين أريد فصل الدين عن السياسة في الإسلام . . .

ولأمر ما أبى الإسلام التفرقة بين دين ودنيا ، أو عقيدة وسياسة . . . وقنَّن الخلفاء هذا النظام وأسموه « الخلافة » أو « الإمامة العظمى » وعرفوها تعريفاً يقلق قياصرة اليوم وشياهه . عرفوها بقولهم : هي خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين ، وسياسة الدنيا به .)[2]

فإذا كانت الدنيا لا تنفك عن الدين ، والسياسة لا تنفك عن العقيدة ،

---

(١) الإمام حسن البنا ـ الجزء الثاني / ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) المستشار الدكتور علي جريشة / ٩٧ ـ ٩٩ ، ط دار الوفاء ـ المنصورة ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .

فإنه بات ضرورياً أن يعلم أنَّ السعي لاختيار القيادة التي ترعى المصالح الدينية والدنيوية واجب حتمي لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

جاء في كتاب « الحسبة في الإسلام » : (ولهذا أمر النبي ﷺ أمته بتولية ولاة أمور عليهم ، وأمر ولاة الأمور أن يردوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل .)[1]

هذا الأمر بتولية ولاة الأمور هو واجب شرعي كما توافرت النصوص على ذلك .

جاء في كتاب « الأحكام السلطانية » : (الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا ، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع وإن شذ عنهم الأصم[2] . . . فإذا ثبت وجوب الإمامة ، ففرضها على الكفاية كالجهاد وطلب العلم ، فإذا قام بها من هو أهلها سقط . ففرضها على الكفاية . وإن لم يقم بها أحد خرج من الناس فريقان : أحدهما أهل الاختيار حتى يختاروا إماماً للأمة ، والثاني أهل الإمامة حتى ينتصب أحدهم للإمامة .)[3]

فأهل الاختيار إذا قاموا بواجبهم فإنهم بذلك يقومون بأعظم حق أخوي تجاه إخوانهم ، لأنهم بذلك يوفرون لأولئك الإخوان أفضل مناخ لحريتهم ، وكرامتهم ، ورعايتهم ، وحصانتهم ، وما إلى ذلك . .

---

(١) ابن تيمية / ٥ .

(٢) هو عبد الرحمن بن كيسان أبوبكر الأصم من المعتزلة ، وقد خرج عن الإجماع ، ورأى أن نصب الإمام أمر غير واجب .

(٣) الماوردي / ٥ ، ٦ .

جاء في كتاب « السياسة الشرعية » : (يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها . فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس ، حتى قال النبي ﷺ : « إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا » رواه أبوداود من حديث أبي سعيد وأبي هريرة[1] . . . فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله ؛ فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات .)[2]

وجاء في شرح جوهرة التوحيد :

وواجب نصب إمام عدل بالشرع فاعلم لا بحكم العقل

. . . ووجوب نصب الإمام إنما تحقق بالشرع عند أهل السنة ، لا بالعقل كما ذهب إليه بعض المعتزلة كالجاحظ وغيره . ومن الوجوه الدالة على وجوبه شرعاً أن الشارع أمر بإقامة الحدود ، وسد الثغور ، وتجهيز الجيوش ، وذلك لا يتم إلا بإمام يرجعون إليه في أمورهم ، وقد اجتمعت الصحابة عليه بعد انتقال الرسول ﷺ حتى جعلوه أهم الواجبات .)[3]

وجاء في كتاب « غياث الأمم في التياث الظلم » : (فنصب الإمام عند الإمكان واجب ، وذهب عبد الرحمن بن كيسان[4] إلى أنه لا يجب . . .

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (ج١ / ١٤٨ ، رقم ٥٠٠)

(٢) ابن تيمية / ١١٦ ، ١١٧ .

(٣) الشيخ إبراهيم الباجوري / ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ط مؤسسة أنس بن مالك ، بيروت ـــ لبنان . بدون تاريخ . نسقه وخرج أحاديثه محمد أديب الكيلاني وعبد الكريم تتان ، وراجعه وقدم له الشيخ عبد الكريم الرفاعي .

(٤) هو الأصم نفسه الذي أشار إليه الماوردي في النص السابق .

فإذا تقرر وجوب نصب الإمام ؛ فالذي صار إليه جماهير الأئمة أن وجوب النصب مستفاد من الشرع المنقول ، غير متلقى من قضايا العقول .)[1]

وجاء في كتاب « مقدمة ابن خلدون » : (ثم إن نصب الإمام واجب قد عُرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين ، لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه ، وتسليم النظر إليه في أمورهم ، وكذا في كل عصر من بعد ذلك ، ولم تُترك الناسُ فوضى في عصر من الأعصار . واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام .)[2]

وجاء في كتاب « العقيدة النسفية » : (والمسلمون لا بد لهم من إمام يقوم بتنفيذ أحكامهم ، و . . .)[3]

وجاء في كتاب « علم أصول الفقه » : (قوله تعالى : ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ يفهم منه بطريق الإشارة إيجاب إيجاد طائفة من الأمة تمثلها وتستشار في أمرها لأن تنفيذ الأمر ومشاورة الأمة يستلزم ذلك .)[4]

من كل ما تقدم يتضح أن نصب الإمام واجب على الأمة ؛ ولما كان

---

(١) إمام الحرمين أبو المعالي الجويني / ١٥ ـ ١٧ .

(٢) مقدمة ابن خلدون : (ج١ / ٢٠٣)

(٣) الإمام عمر النسفي / ٥ ، وهي مطبوعة في أول حاشية هذه العقائد لرمضان أفندي . ط شركت صحافية عثمانية ، ١٣٠٨ هـ ، وقد جاء في هذا الشرح صفحة ٢٩٧ : (ثم الإجماع على أن نصب الإمام واجب) .

(٤) عبد الوهاب خلاف / ١٤٦ .

ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، بات واضحاً أن السعي لإقامة هـذا الواجب من أوجب الواجبات ، لأن تعلقه بأخطر قضيـة في حيـاة الأمـة . وبهذا السعي يتحقق للأمة قيامها بأعظم حـق مـن حقـوق أخوتـها ، لأن الأخوة تعني في أبسط صورها نصر المظلوم وكف يد الظـالم عـن ظلمـه ، وتحقيق العدل بين الناس ، ومساعدة الضعيف ، وإغاثة الملهوف ، وتحقيـق حد أدنى من الكفاية للعجزة والمحتاجين ، وما إلى ذلك ، مما لا يمكن لفرد أو جماعة القيام به على الوجه المطلوب ؛ بل لا بد له في كثير من الحالات من إمام عادل ، وسلطة تبسط سيطرتها ، لتحقيق ذلك كله .

ومن هنا كان ذلك السعي لتنصيب الإمام مـن أكـثر حقـوق الأخـوة على الأمة المؤمنة ، فضلاً عن كونه واجباً شرعياً لا غنى للأمة عن أدائه ، والقيام بأعبائه . لكن لا بد من التنبيه على أن هذا الحق في اختيـار القيـادة المؤهلة هو لأهله ، وفرسان ميدانه ، كما أشار إلى ذلك الماوردي ـ رحمه الله ـ في أحكامه السلطانية حين قال في النص السـابق : (أحدهمـا أهـل الاختيار حتى يختاروا إماماً للأمة) وأهل الاختيار هم أهل الحل والعقـد ، إذ لا يمكن أن يتساوى الناس في هذا الحـق فيكـون مَـنْ لا علـم لـه ، ولا خبرة ، ولا دراية ، كالعالم الخبير المجرب سواء بسواء .

لأن هذا معناه أن يُعطى مثلاً لكل العاملين في أحد المشافي من إداريـين ، وعمال وحراس ، وأطباء مختصـين ، ومـا إلى ذلـك ، يُعطَـوْن حـق تقريـر المصير لمريض في مرض القلب مثلاً حين تطرح تلك القضية الخطـيرة علـى كل العاملين في المستشـفى ، ليقولـوا رأيـهم في إجـراء تلـك العمليـة لهـذا المريض أو عـدم إجرائـها . وبـذا يكـون للفـراش رأي مسـاوٍ لـرأي أمـهر طبيب مختص حين يطلب من الجميـع أن يُدْلـوا بأصواتـهم دون تمـيز بـين مختص وغيره .

لكنه إذا فرض على الأمة أن تتعامل مع هذا النظام ، لظروف قاهرة ، واعتبارات دولية ضاغطة ، فإنه يمكن تمريره على أساس أن أهل الحل والعقد من عباقرة الأمة المؤهلين لقيادتها ، يمكن لهم أن يقدموا رأيهم المطاع لأبناء أمتهم من منطلق الثقة بهم لهذه الأهلية ، فتكون الآراء عندها أقرب ما تكون للحقيقة والصواب ، وكأن القضية قد آلت إلى الطائفة المؤهلة لهذا الاختيار ، ما دامت الأمة لا تملك حق التعبير عن رأيها إلا بهذه الطريقة .

فأهل الحل والعقد هم النخبة الممتازة المؤهلة من عباقرة الأمة المتخصصين .

جاء في كتاب « خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم » : (قلنا إن الشورى التشريعية مبدأ يقضي بإسناد الأمر إلى أهله حتى يستقيم ، وليست مقصورة على المجتهدين كما يظن ، أو على خصوص الحكام ، بل تشمل كافة ذوي الكفاءات التي تتعلق بجميع شؤون الدولة ومجالات الحياة .)[1]

لكن المشكلة تكاد تستعصي ، ولا تجد لها حلاً في المنظور القريب ، إذا فَرض أناس أنفسهم على الأمة لاعتبارات كثيرة ، على أنهم أهل الحل والعقد ، الذين يجب أن يُرجع إليهم دون غيرهم ، مع عدم تحقيق الأهلية الكافية فيهم سواء من حيث العلم التخصصي المطلوب ، أو من حيث الخبرة والتجربة الميدانية ، أو من حيث القدرة على تحمل المسؤولية في الظروف الصعبة ، وما إلى ذلك .

جاء في كتاب الأمة « رؤية إسلامية في قضايا معاصرة » : (ونخشى

---

(١) د . فتحي الدريني / ٤١٦ . ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م .

أن نقول هنا : بأن النخبة التي نيط بها من حيث الشكل على الأقل ، التجديد ، وتقديم الحلول لمشكلات الأمة ، والدليل لمسيرتها ، تصبح هي المشكلة ، أو هي مشكلة الأمة الحقيقية ، بحيث تتحول النخبة من وسيلة تجديد ونهوض ، إلى أداة تخلف وجمود ، وعجز يستدعي « الآخر » ليقود الأمة ، ويمارس فيها التضليل الثقافي والسياسي على حد سواء . . . والادعاء بالهجمة الشرسة ، و الحصار الخارجي . . . بات لا يقنع أحداً ، إن لم نقل : بأنه يحمل في طياته من بعض الوجوه دليل الإدانة للنخبة ، وأقل ما يقال فيه : بأن النخبة بعمومها ، ليست في مستوى الأحداث ، وليست في مستوى العصر ، والقدرة على التعامل معه ، هذا إن لم نقل : بأنها ليست في مستوى فهم الإسلام والعصر معاً ، الفهم الصحيح .)[1]

فإذا كانت المشكلة تكمن في اختيار أهل الحل والعقد حال فقد الإمام ، تكمن في تكوينهم على أساس التخصصات الناطقة ، التي تشمل كل مجالات الحياة الفاعلة ، والتي يتقنها عباقرة الأمة الموهوبون من غير العاديين ، أصحاب الخبرة الميدانية ، والقدرة على تحمل المسؤولية بكل تكاليفها وأبعادها في ظل أقسى الظروف المتوقعة ؛ فإن هذا يعني أن تتوافر جهود الأمة لاختيارهم ، وتمكينهم من مزاولة مهامهم ، وتحملهم لمسؤولياتهم ، بعيداً عن الأحساب والأنساب والألقاب ، من الذين لا تتوفر فيهم الأهلية ، والكفاية المطلوبة .

جاء في كتاب « أحكام القرآن » عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾[2] . . . : (ليست

---

(١) د . عماد الدين خليل / ١٢ ، ١٣ ، مطابع الدوحة الحديثة ـ قطر ، ١٤١٦ هـ .

(٢) من سورة البقرة : (الآية / ٢٤٧) .

الإمامة وراثة ، وإنما هي بالعلم والقوة ، لا بالنسب ، فيها دلالة على أن الإمامة ليست وراثة ، لإنكار الله تعالى عليهم ما أنكروه من التمليك عليهم مَنْ ليس من بيت النبوة ولا الملك [وكان طالوت من ولد بنيامين ابن يعقوب عليهما السلام] وبين أن ذلك مستحق بالعلم والقوة ، لا بالنسب ، ودل ذلك على أنه لاحظ للنسب مع العلم وفضائل النفس .)[1]

أجل ! هذا هو واجب الوقت على الأمة ، وهو البحث عن أهل الحل والعقد من النخبة الموهوبة المؤهلة حال فقد الإمام حتى تجد تلك الطائفة ، ولكن من غير تعطيل للواجبات الأخرى التي لا تتوقف على هذا الإيجاد ، إذ لا يعقل أن تستسلم الأمة لكل ما يراد بها من فساد حتى تجد ضالتها ، التي ربما يتعذر عليها الوصول إليها .

جاء في كتاب « غياث الأمم في التياث الظلم » : (فإذا خلا الزمان عن السلطان وجب البدار على حسب الإمكان إلى درء البوائق عن أهل الإيمان . . . وإذا لم يصادف الناس قوّاماً بأمورهم يلوذون به ، فيستحيل أن يؤمروا بالقعود عما يقتدرون عليه من دفع الفساد . .

وقد قال العلماء : لو خلا الزمان عن السلطان فحق على قُطان كل بلدة وسكان كل قرية أن يقدموا من ذوي الأحلام والنهى ، وذوي العقول والحجى مَنْ يلتزمون امتثال إشارته وأوامره ، وينتهون عن مناهيه ومزاجره ، فإنهم لو لم يفعلوا ذلك ترددوا عند إلمام المهمات ، وتبلدوا عند إظلال الواقعات .)[2]

---

(١) ظفر أحمد العثماني : (ج١ / ٦٣٦) ، ط إدارة القرآن والعلوم الإسلامية ــ كراتشي ، ١٤٠٧ هـ ــ ١٩٨٧ م .

(٢) إمام الحرمين الجويني / ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

ويبقى البحث عن الإمام العادل أو من ينوب منابه واجباً شرعياً ، وحقاً أخوياً لا يجوز التفريط فيه لأي سبب من الأسباب .

جاء في كتاب الأمة « رؤية إسلامية في قضايا معاصرة » : (لذلك أعتقد أن المسلمين الذين لمّا يستشعروا الحاجة بعدُ إلى استدراك الاختصاصات المطلوبة ، لتحقيق الاكتفاء الذاتي للأمة ، وبناء النخبة ، أو أهل الحل والعقد بناء متكاملاً . . . إنهم ينتقصون الإسلام ، ويهمّشون دوره ، ويحاصرونه بعيداً عن الاقتدار على صياغة الحياة ، بجوانبها المتشعبة ، وصبغها بالإسلام إنهم أدلة رديئة ومشوَّهة ، افتقدت العلم والثقافة معاً ، وفصلت الدين عن الحياة ، وأخلت مواقعها المهمة ، ومنابرها المؤثرة لعلماء ومتخصصي الثقافات الأخرى ، الذين يعبثون في حياة الناس . . .)[1]

لذا فإن هذا البحث يجب أن يقع في موطنه ، ويدور مع فرسان ميدانه ، كما جاء في كتاب الأمة السابق : (إن وجود قدر بسيط من الثقافة الإسلامية المترافق مع الحماس ، والانتصار العاطفي للإسلام ، والإخلاص في الرغبة لنصرة الدين وانتصاره ، لا يؤهل صاحبه ليكون من النخبة ، أو من أهل الحل والعقد ، . . . كما أن القدرة على الخطابة ، واستثارة العواطف ، وإثارة الرأي العام ، وزيادة التوثب والحماس ، دون كسب للعلوم الشرعية ، والتحقق بها لا تؤهل صاحبها لأن يكون من أهل الحل والعقد ، أو من النخبة التي تمثل الرأس المفكر ، والمخطط للأمة . . . كما أن مجرد الانتساب إلى الجماعات ، والمؤسسات ، والتنظيمات ، والجمعيات الإسلامية ، لا يكفي وحده لأن يجعل صاحبه في أهل الحل والعقد . . .)[2]

---

(١) د . عماد الدين خليل / ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) المرجع نفسه / ٢٢ ـ ٢٤ .

لكن إذا وجد الإمام ولو لم يكن عالماً ولا عادلاً ، وحكم بالغَلَبة والقهر ، فإن عليه أن يرجع إلى العلماء وأهل الصدق والعدل .

جاء في كتاب « الطرق الحكمية في السياسة الشرعية » : (ولذا يجب على كل ولي أمر أن يستعين في ولايته بأهل الصدق والعدل ، والأمثل فالأمثل ، وإن كان فيه كذب وفجور ، فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وبأقوام لا خلاق لهم .)[1]

ومثل هذا نجده في كتاب « غياث الأمم في التياث الظلم » حيث جاء فيه : (إذا وجد في الزمان كافٍ ذو شهامة ، ولم يكن من العلم على مرتبة الاستقلال ، وقد استظهر بالعدد والأنصار ، فهو الوالي ، وإليه أمور الأموال والأجناد والولايات ، ولكن يتحتم عليه أن لا يبتّ أمراً دون مراجعة العلماء .)[2]

فالمرجعية إذن على كل حال في تقدير الأمور ، واختيار الأصلح ترجع للنخبة من أهل الحل والعقد ، الذين لا بد من توفرهم ، وتوفير الجهود لإيجادهم وتمكينهم ، على أسس سليمة ، ومعايير صحيحة .

فإذا قدر الله لهذه النخبة المختارة ، من عباقرة الأمة ، من علمائها ومفكريها ، وكل المتخصصين تخصصات فاعلة فيها ، إذا قدر الله لهذه الطائفة من أهل الحل والعقد أن ترى النور ، فإن الأمة سوف تشق طريقها لتجد عزتها ورفعتها في ظل أخوتها ووحدتها .

---

(١) ابن قيم الجوزية / ٣١٧ ، ط مطبعة المدني ـ القاهرة ، بدون تاريخ ، تحقيق الدكتور محمد جميل غازي .

(٢) إمام الحرمين الجويني / ٢٨٣ .

حقوق الأمة على تلك القيادة المؤهلة :

لما كان وصول الأمة إلى اختيار قيادتها المؤهلة يعد أكبر نصر تحققه تلك الأمة في حياتها الدعوية ، ولما كان معلوماً أن المحافظة على النصر أصعب من تحقيق النصر نفسه ، بات لزاماً إذا وفقت الأمة لاختيار قيادتها المؤهلة ، سواء أكان ذلك في اختيار إمامها العادل ، أم كان في اختيار من ينوب عنه من أهل الحل والعقد المعتبرين حال غيابه ، فإنه بات لزاماً أن تحوط تلك الأمة نصرها بكل سياج ممكن .

ولما كان كل خير تحصله الرعية هو خير لقيادتها ، وكل شر وبلاء ينزل بها هو شر وبلاء ينزل بتلك القيادة ، وينذر بزوالها ، وبضياع كل الجهود التي بذلت من أجل قيامها ؛ كما أشار إلى ذلك الإمام الماوردي ـ رحمه الله ـ بقوله : (وأما القاعدة الثانية : حراسة الرعية ، فلأنهم أمانات الله التي استودعه حفظها ، واسترعاه القيام بها ، لا يقدرون على الدفع عن أنفسهم إلا بسلطانه ، ولا يصلون إلى العدل والتناصف إلا بإحسانه ، وهو منهم بمنزلة ولي اليتيم المندوب لكفالته ، والقيم بمصالحه ، يلزمه بحكم الاسترعاء والأمانة أن يقوم زلله ، ويصلح خلله ، ويحفظ أمواله ، ويثمر مواده ، كذلك مكانه من رعيته في الذب عنهم ، والنظر لهم ، والقيام بمصالحهم ، فإن النفع بصلاح أحوالهم عائد عليه ، والضرر متعد إليه ، فلن توجد استقامة ملك فسدت فيه أحوال الرعايا .)[1]

ولما كان بقاء الأمة مرهون ببقاء قيادتها ، وهذه القيادة لا يمكنها أن تستمر إلا إذا قامت بما يتوجب عليها تجاه أمتها .

---

(١) تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك / ٢١٤ .

لذا كان لزاماً إذا وُفقت الأمة لاختيار قيادتها المؤهلة ، أن تقابل تلك القيادة أبناءها حباً بحب ، ووفاء بوفاء ، لأن القيادة في ميزان الإسلام تكليف له مسؤولياته وضوابطه الشرعية ، وحقوقه الأخوية .

جاء في كتاب « التشريع الجنائي الإسلامي » : (جاءت الشريعة الإسلامية من يوم نزولها بتقييد سلطة الحاكم ، فكانت أول شريعة قيدت سلطة الحكام ، وحرمتهم حرية التصرف ، وألزمتهم أن يحكموا في حدود معينة ، ليس لهم أن يتجاوزوها ، وجعلتهم مسؤولين عن عدوانهم وأخطائهم . وتقوم النظرية على ثلاثة مبادئ أساسية : أولها وضع حدود لسلطة الحاكم ، ثانيها مسؤولية الحاكم عن عدوانه وأخطائه ، ثالثها تخويل الأمة حق عزل الحاكم .)[1]

وجاء في كتاب « نظرات إسلامية » : (وأخيراً فهي خلافة مقيدة بمبادئ شريعة الله المصلحية العامة وبأحكامها التفصيلية ، مثلها مثل أية سلطة ديمقراطية[2] حديثة اليوم على الأرض عندما تقيد تصرفاتها بالمبادئ

---

(١) عبد القادر عودة : (ج١ / ٤١ ، ٤٢)

(٢) تمثيل الخلافة بالديمقراطية غير موفق ، وللنظام الديمقراطي سلبياته التي تعرف في محالّها ، رغم كل ما يقال عنه . لكن الدكتور الدواليبي ـ يحفظه الله ـ لعله بحكم شغله لمنصب رئيس الوزراء لسورية في فترة انفصالها عن مصر قد تأثر بالتعبيرات السياسية ، وبخاصة أن كلمته هذه كانت محاضرة ألقاها في الندوة التي أقامتها الأمانة العامة لمنظمة مؤتمر وزراء الخارجية الإسلامي التي انعقدت عام ١٩٧٨ م في النيجر ، فخاطب القوم بلغتهم . ولعل من المناسب أن نسمع ما قيل عن افتتان بعض المسلمين بالديمقراطية في كتاب « الشورى المفترى عليها » حيث جاء فيه : (نجد أن بعضاً من الجماعات الإسلامية تمارس هذه الأساليب الديمقراطية وتتقيد بها حتى في داخل هياكلها التنظيمية ، وفي اتخاذ قراراتها ، واختيار رؤسائها ، ومكاتبها التنفيذية ، ومجالسها الشورية) الأمين الحاج محمد أحمد / ٥٤ ، ط دار المطبوعات الحديثة ـ جدة ، ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م .

العامة المصلحية الدستورية ، وبالأحكام التفصيلية في قوانينها ، محاربة لأية سلطة مطلقة غير مراقبة .)[1]

وجاء في كتاب « غياث الأمم في التياث الظلم » : (وقد قال المصطفى ﷺ في أثناء خطبته « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته »[2] وقد عظم والله الخطر لمقام مستقل في الإسلام من حكمه باتفاق علماء الأنام ، أنه لو مات على ضفة الفرات مضرور ، أو ضاع على شاطئ الجيحون مقرور ، أو تُصوِّر في أطراف خطة الإسلام مكروب مضموم ، أو تلوى في منقطع المملكة مضطهد مهموم ، أو جأر إلى الله تعالى مظلوم ، أو بات تحت الضر خاوٍ ، أو مات على الجوع والضياع طاوٍ ، فهو المسؤول عنها ، والمطالب بها في مشهد يوم عظيم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .)[3]

إن عناية القيادة المؤهلة بالرعية أمر على درجة كبيرة من الأهمية ، وهو يحقق لهذه القيادة وجودها واستقرارها ، ويوفر لها عزها ورفعتها ، ويؤمن لها من الخير في دنياها أكثر مما يصيب رعاياها ، فضلاً عما ينتظر تلك القيادة من الأجر في أخراها .

لذا فقد كانت تلك العناية واجباً شرعياً ، وحقاً أخوياً ، تقوم به تلك القيادة دون أن يكون لها أدنى مِنَّةٍ في ذلك على أحد ، لأنها هي

---

(١) د . معروف الدواليبي / ٥٩ ، ط دار الكتاب الجديد ـ بيروت ، ١٩٧٩ م .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح : (ج٢ / كتاب الجمعة ـ ١١ ، رقم ٨٩٣ ، ج٣ / استقراض ـ ٢٠ ، رقم ٢٤٠٩) ، وصحيح مسلم بشرح النووي : (ج١٢ / إمارة ، ص ٢١٣ ، رقم ٢٠)

(٣) إمام الحرمين الجويني / ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

المستفيدة قبل غيرها من كل ما تقدمه لرعاياها .

ومن هنا فقد وضع الفقهاء بعض الحقوق التي تجب على القيادة لتحقيق مصلحتها ومصلحة الأمة من ورائها .

قال الإمام الماوردي ـ رحمه الله ـ : (والذي يلزم الملك في حقوق الاسترعاء عليهم عشرة أشياء :

أحدها : تمكين الرعية من استيطان مساكنهم وادعين .

والثاني : التخلية بينهم وبين مساكنهم آمنين .

والثالث : كف الأذى والأيدي الغالبة عنهم .

والرابع : استعمال العدل والنصفة معهم .

والخامس : فصل الخصام بين المتنازعين منهم .

والسادس : حملهم على موجب الشرع في عباداتهم ومعاملاتهم .

والسابع : إقامة حدود الله تعالى ، وحقوقه فيهم .

والثامن : أمن سبلهم ومسالكهم .

والتاسع : القيام بمصالحهم في حفظ مياههم وقناطرهم .

والعاشر : تقديرهم وترتيبهم على أقدارهم ، ومنازلهم ، فيما يتميزون به من دين وعمل وكسب وصيانة .

فإذا قام فيهم بهذه الحقوق فهي السياسة العادلة ، والسيرة الفاضلة التي تستخلص بها طاعة الرعية ، وينتظم بها صلاح المملكة ، وإن أخل بها كان وإياهم على ضدها .)[1]

---

(١) تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك / ٢١٤ ، ٢١٥ .

وقد جاء تحديد ما يجب على الإمام في كتاب « الأحكام السلطانية »
في عشرة أمور هي :

١ ـ حفظ الدين على أصوله المستقرة ، وما أجمع عليه سلف الأمة

الحل والعقد التي نِيط بها أمر اختيار الإمام العادل حال غيابه ، أن تنظر إلى تلك الحقوق نظر جدية وواقعية ، وتلتزم بكل ما يتوجب عليها تجاه من اختاروها لهذه المسؤولية مراعاة لحقوق الأخوة بينهم وبين إخوانهم الذين وضعوا ثقتهم فيهم ، ووفاء للأمانة التي تحملوها تجاه شعوبهم وأوطانهم .

وأعظم حق يمكن للأمة أن تطالب به أولئك الذين اختارتهم من أهل الحل والعقد أن لا تغفل أعينهم لحظة عن البحث لهم عن الإمام العادل حال غيابه ، لتنصيبه ، لتنعم الأمة بالأمن والاستقرار ، وتطمئن على سلامة عقيدتها ، وحريتها في أداء شعائر دينها ، وتحقيق العدل في كل قضاياها ، ولتستطيع تلك الأمة أن تنطلق في تحقيق أهدافها وتطلعاتها ، كما أراد لها ربها ، يوم أن اختارها لتكون خير أمة أخرجت للناس ، وذلك دون أن تُفتن تلك الطائفة بدنيا زائلة يمكن أن يقدمها لهم الطواغيت في الأرض ، لشراء ضمائرهم ، وإلهائهم عن قصدهم .

وذلك كله في ظلال ما أوتوه من الحكمة والبصيرة ، وفق موازنة شرعية دقيقة ومنضبطة بين الواجبات والمُكنات .

وبهذه المناسبة لا بد من التذكير بأن طائفة أهل الحل والعقد ليست خطراً على أحد ، وإنما هي مصدر لخير الجميع ، سواء أكان ذلك حين تختار استبدال الحاكم لاعتبارات تقدِّرها ؛ وهي أهل لذلك ، فهي في ذلك تنصره ولو أنها تقهره ، لأنها في أقل تقدير تحجبه عن ظلمه ، لتخفف من شؤمه أمام شعبه ، يوم يفد على ربه ، كما تنصر المظلومين والمقهورين من ورائه .

قال رسول الله ﷺ : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . فقال رجل : يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً ، أفرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره ؟

قال : تحجزه أو تمنعه من الظلم ، فإن ذلك نصره . »[1]

أو سواء أكان ذلك حين تختار بقاءه مرجحة أخف الضررين ، وأهون الشرين ؛ فهي عندئذ تقف في وجه كل التوثُّبات غير المنضبطة ، التي يمكن أن تظهر هنا وهناك ، لتقلق الحاكم ، وتفسد أمره ، ولتسيء أكثر مما تصلح بنظر قاصر ، ورؤية محدودة ، حين تظن أنها قادرة على التغيير إلى الأفضل لأن بعد النظر ، والرؤية المبصرة في تلك القضايا العامة الخطيرة ، لا تتأتّى لفرد قاصر ، ولا لمجموعة محدودة ، وإنما هي من حق أهل الحل والعقد المعتبرين ، بغالبيتهم أو مجتمعين .

ومن هنا فإنه يتوجب على الأمة حكاماً ومحكومين أن ينظروا إلى هيئة أهل الحل والعقد نظر احترام وتقدير ، فيسهلوا لها مهمتها ، ويوفروا لها أمنها وحريتها ، لما تحمله تلك الطائفة من خير عميم للحكام والمحكومين على أي اعتبار سواء بسواء ؛ وهي في ذلك كله لا تعرف الحقد على أحد ، وإنما تختار الأصلح للجميع بعيداً عن مصالحها الذاتية ، ومنافعها الشخصية ، بل لعلها تُعرِّض نفسها للخطر ، حين لا يفهم بعض المتسلطين طبيعة رسالتها ، وإرادتها الخير ليس غير .

وإذا كان للأمة أن تُفصح عن المزيد من حقوقها التي تؤمِّلها في أهل الحل والعقد ، فإنها تطالبها بتحقيق العدل والمساواة لدى المغنم كما حملت معها كل التبعات أثناء المغرم .

وتطالبها بإعطائها حرية التعبير عن رأيها في القضايا التي تهمها ، فتسمعها ، وتحسن تقبلها حتى ولو كانت تلك الآراء تصدر عن صغير

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح : (ج١٢ / كتاب الإكراه ـ ٧ ، رقم ٦٩٥٢ ، و ج٥ / مظالم ـ ٤ ، رقم ٢٤٤٤)

غير ذي بال .

جاء في كتاب « خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم » : (حرية الرأي في الإسلام مكفولة بل واجبة كفائياً كالشورى ، لأنها ضرب من المشاركة السياسية ، . . . وحرية الرأي قد تتخذ نوعاً من النقد ، أو النصح النزيه البناء ، وهو مطلوب . هذا وحرية التفكير والرأي في العلم لاستجلاء الحقيقة أمر حيوي للتقدم العلمي نفسه ، وهو واجب ؛ فالعقل بدون حرية شيء لا غناء فيه ، والحرية بدون عقل فوضى وفساد وثرثرة لا يقوم على أساسها علم ولا حضارة .)[1]

وتطالبها بتشجيع المتفوقين من أبنائها ، وتحقيق تكافؤ الفرص بينهم في اختيار تخصصاتهم التي تمتلك حق توجيهها وتقنينها ، بما يتناسب مع المصلحة المستقبلية للأمة .

وتطالبها بالعناية بأصحاب المواهب الذين يظهر فيهم الإبداع المبكر ، وتُرى عليهم سمات العبقرية ، أن تهذِّبهم ، وتواكب تطلّعهم وتوثُّبهم ، وتضعهم في مكانهم المناسب دون تخوف من سحب البساط من تحت أحدهم ، لأن القضية قضية أمانة ومسؤولية ، لما فيه المصلحة العامة دون أي اعتبار آخر ، لأن رعاية المصلحة قاعدة فقهية معلومة .

جاء في كتاب « القواعد الفقهية » : (التصرف على الرعية منوط بالمصلحة : هذه قاعدة مهمة ذات مساس بالسياسة الشرعية ، وتنظيم الدولة الإسلامية ، تضع حداً ووازعاً للحاكم في كافة تصرفاته ، ولكل من يتولى أمراً من أمور المسلمين ، وقد عبر عنها العلامة تاج الدين السبكي بالصيغة التالية : « كل متصرف عن الغير فعليه أن يتصرف بالمصلحة »[2]

---

(١) د . فتحي الدريني / ٤٠٥ . ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م .

(٢) الأشباه والنظائر ، مخطوط / ٩٦ ، الوجه الثاني . كما جاء في حاشية المرجع نفسه .

والقاعدة لها سند في كتاب الله عز وجل ، وفي السنة المطهرة ، فمن أقوم الأدلة عليها ، قول الله تعالى : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾[1])[2]

كما تطالبها بتقديم المساعدة المادية والمعنوية لكل محتاج إليها ، لأن أهل النظر محل ثقة أصحاب الأموال ، فيضعونها في أيديهم ، كما أن من بيدهم المراكز والمناصب والإدارات يستمعون لهؤلاء الأشخاص ، فيقدمون الذي يقدمونه ، ويؤخرون الذي يؤخرونه .

وتطالبها بأن يكون القرار في أمور الجهاد لأهله المعتبرين ، الذين لهم خبرة بأمور الدنيا وتقلباتها وسياساتها . كما جاء في كتاب « الاختيارات الفقهية » : (والواجب أن يعتبر في أمور الجهاد برأي أهل الدين الصحيح الذين لهم خبرة بما عليه أهل الدنيا ، دون الذين يغلب عليهم النظر في ظاهر الدين ، فلا يؤخذ برأيهم ولا برأي أهل الدين الذين لا خبرة لهم في الدنيا .)[3]

وكما جاء في فتاوى ابن تيمية : (ولهذا قال الإمامان عبد الله ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما : إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ماذا عليه أهل الثغور ، فإن الحق معهم ، لأن الله يقول : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)[4])[5]

كما تطالبها بأن تختار لكل موقع ما يناسبه ، من أهل الكفاءات المتميزين ،

---

(١) من سورة النساء : (الآية / ٥٨) .

(٢) علي أحمد الندوي / ٢٨٠ ، ط دار القلم ـ دمشق ، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م .

(٣) ابن تيمية / ٣١١ .

(٤) من سورة العنكبوت : (الآية / ٦٩)

(٥) فتاوى ابن تيمية : (ج٢٨ / ٤٤٢)

حتى ولو كانت سنهم صغيرة ، وذلك كي تفسح المجال أمام القيادات الفتية .

فهذا أسامة بن زيد رضي الله عنهما وهو في السابعة عشرة من عمره يعينه الرسول ﷺ قائداً على جيش فيه كبار الصحابة رضوان الله عليهم ، ويُمضي أبو بكر رضي الله عنه هذا التعيين بعد أن صار خليفة بسبب انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ثم هو يستأذن أسامة بأن يُبقي له عمر رضي الله عنهم ليستشيره في خلافته فيفعل ، كما جاء ذلك في السيرة الحلبية : (إن الخليفة المهدي لما دخل البصرة رأى إياس بن معاوية الذي يضرب به المثل في الذكاء وهو صبي ، وخلفه أربعمائة من العلماء وأصحاب الطيالسة ، فقال المهدي : أف لهذه العثانين أما كان فيهم شيخ يتقدمهم غير هذا الحدث ؟ ثم التفت إليه المهدي وقال : كم سنك يا فتى ؟ فقال : سني أطال الله بقاء أمير المؤمنين سن أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهم لما ولاه رسول الله ﷺ جيشاً فيه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، فقال : تقدم بارك الله فيك ، وكان سنه سبع عشرة سنة .)[1]

وهذا محمد الفاتح ـ رحمه الله ـ وهو في الثالثة والعشرين من عمره يقود جيش المسلمين لفتح القسطنطينية فيتحقق على يديه ذلك الفتح المبارك الذي بشر به الرسول الكريم ﷺ بقوله : « لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش . »[2] ، كما جاء في كتاب « السلطان محمد الفاتح » : (وهكذا بعد حصار دام واحداً وخمسين يوماً سقطت المدينة الحصينة التي استعصت على الفاتحين على يد بطل شاب له من العمر ثلاث وعشرون سنة .)[3]

وبهذا تكسب طائفة أهل الحل والعقد مزيداً من الثقة بها وبإخلاصها ووفائها .

---

(١) علي بن برهان الدين الحلبي : (ج٣ / ٢٠٧)

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند : (ج٤ / ٢٥٥) ، والحاكم في المستدرك ، وقال صحيح الإسناد .

(٣) الدكتور عبد السلام عبد العزيز فهمي / ١٢٦ .

نداء وخاتمة

والآن وبعد الوقوف على بعض النماذج المشرقة من الأخوة الدعوية ، فإنه لا بد من نداء حارٍّ مخلص يتوجه إلى أبناء أمتنا من جديد ، وبخاصة منهم المتخصصون الموهوبون ، والدعاة المخلصون المتميزون ، الذين يتمتعون بتاريخ مضيء لم يعرف النفاق ولا التزلف ولا المداهنة ، وتحفل سيرتهم بسلوك طاهر نظيف في ماضيهم وحاضرهم ، ولديهم جرأة في قول الحق واتخاذ المواقف ، دون أن تأخذهم في الله لومة لائم ، الذين امتحنوا فصبروا ، وابتلوا فاحتسبوا ، فصقلتهم الأحداث ، وعركتهم التجارب ، واكتسبوا خبرة ، وازدادوا ثباتاً ومضياً ، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ولم يعطوا الدنية في دينهم ، ولا تزال صفحتهم بيضاء نقية ، الذين يدورون مع الحق حيث دار ، ولا يعرفون التعصب البغيض لقومية أو عنصرية أو إقليمية أو حزبية ، أو أي انتماء يولد الأحقاد أو الكراهية ، الذين يؤمنون بحرية التفكير والتعبير ، ويرون ضرورة الصراحة لدى أي نقاش أو حوار ، بعيداً عن سياسة المناورات أو الالتواء أو الاحتواء ، كما لا يضيقون ذرعاً بالرأي الآخر ، بل يحترمونه ويقدرونه ، ويحسنون الظن بأهله .

إلى هؤلاء جميعاً نتوجه بالنداء من أجل خطوة على طريق وحدة الأمة وتآلفها ، وذلك بالتحقق بأخوة مثالية متميزة تضم كل الداعين إلى الله سبحانه ، لترسم الأمة من ورائهم تلك الخطوات المباركة بعد أن تعي أهم النتائج من تلك الدراسة التي يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ـ حاجة الدعاة بخاصة والأمة بعامة إلى إخوّتهم كحاجتهم لإيمانهم ، لأن الأخوة والإيمان توءمان لا يفترقان . ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ .

٢ـ للأخوة الدعوية أثرها في تآلف قلوب الدعاة ووحدة الأمة .

٣ـ الأخوة الدعوية تستوجب البحث عن أهل الحل والعقد ، ولن يتحقق ذلك إلا إذا توفر الدعاة الأوفياء الذين تربطهم روابط أخوية من نوع فريد وممتاز .

٤ـ أهل الحل والعقد هم النخبة المختارة المتميزة من العلماء العاملين المؤهلين الموهوبين من كل التخصصات الفاعلة ، الذين لديهم القدرة على تحمل المسؤولية ، المنضبطين بالضوابط الشرعية في ظل موازنة دقيقة ومسؤولة بين جلب المنافع ودرء المفاسد .

٥ـ ضرورة تحمل أهل الحل والعقد لمسؤولياتهم تجاه شعوبهم وأوطانهم .

٦ـ ضرورة أن يفهم كل داعية أن قيامه بحقوق إخوانه جزء لا يتجزأ من دينه ، فهو واجب شرعي ، وعبادة من أرقى العبادات .

٧ـ ضرورة أن يذكر الدعاة أنه لا قيمة لهذه المعاني الأخوية إذا بقيت في حيز النظريات بعيدا عن المواقف المشرقة ، والقدوة الحسنة .

فإذا وعى المسلمون بعامة ، والدعاة بخاصة هذه النتائج ، وعملوا لها بكل جد وإخلاص ، فإن الأمة سوف تعود لها وحدتها وعزتها ورفعتها في ظل إخائها ووادها .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

تم بحمد الله
قراءة هذه
الرسالة يوم الاحد
١٤٢٥/١٠/١٤
الساعة ٩:٤٨ صباحاً

المصادر والمراجع

اسم الكتاب	المؤلف
١ ـ الأحكام السلطانية	الماوردي ، ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م
٢ ـ أحكام القرآن	ظفر أحمد العثماني ، ط إدارة القرآن والعلوم الإسلامية ـ كراتشي ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م
٣ ـ إحياء علوم الدين	حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي ، عالم الكتب ، ٤ مجلدات ، يطلب من مكتبة الدروبي ـ دمشق
٤ ـ إحياء فقه الدعوة ـ العوائق	محمد أحمد الراشد ، ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت
٥ ـ الأشباه والنظائر	تاج الدين السبكي ، مخطوط ٩٦ ، الوجه الثاني
٦ ـ الإصابة في تمييز الصحابة	ابن حجر ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ت ١٨٥٣ م
٧ ـ أصول النظام الاجتماعي في الإسلام	محمد الطاهر بن عاشور ، ط الشركة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٩ م
٨ ـ الأمة رؤية إسلامية في قضايا معاصرة	د . عماد الدين خليل ، مطابع الدوحة الحديثة ـ قطر ، ١٤١٦ هـ

اسم الكتاب	المؤلف
٩ ـ الأمير	نيقولا ميكيافللي ، مكتبة مدبولي ،
	ترجمة علي الجوهري ، بدون تاريخ
١٠ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل	البيضاوي ، ط دار الفكر ،
	١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م
١١ ـ البداية والنهاية	ابن كثير ، ط دار الكتب العلمية ـ
	بيروت ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م
١٢ ـ تاريخ الإسلام السياسي والديني	د . حسن إبراهيم
والثقافي والاجتماعي	حسن ، ط دار إحياء التراث
	العربي ، بيروت ، ١٩٦٤ م
١٣ ـ التاريخ الإسلامي	محمود شاكر ، المكتب الإسلامي ،
	بيروت ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٦ م
١٤ ـ تاريخ الخلفاء	السيوطي ، تحقيق محيي الدين
	عبد الحميد
١٥ ـ تسهيل النظر وتعجيل الظفر	للإمام الماوردي ،
في أخلاق الملك وسياسة الملك	ط دار العلوم العربية ـ بيروت ،
	١٩٨٧ م ، تحقيق رضوان السيد
١٦ ـ التشريع الجنائي الإسلامي	عبد القادر عودة ، مؤسسة
	الرسالة ـ بيروت ،
	١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٧ م
١٧ ـ تهذيب الأسماء واللغات	الإمام النووي ـ دار الكتب
	العلمية ـ بيروت

اسم الكتاب	المؤلف
١٨ ـ الحب والأخوة في الله	حسني أدهم جرار ، ط شركة الشرق الأوسط ، عمان ، ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م
١٩ ـ الحركات الإسلامية في الفكر السياسي الإسلامي المعاصر	د . محمد فريد حجاب
٢٠ ـ الحسبة في الإسلام	ابن تيمية ، ط دار الفكر ـ بيروت
٢١ ـ حلية الأولياء	أبو نعيم الأصفهاني ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م ، تحقيق سعيد بن سعد الدين خليل الاسكندراني
٢٢ ـ خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم	د . فتحي الدريني ، ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م
٢٣ ـ خلاصة سير سيد البشر	محب الدين الطبري ـ تحقيق د . زهير الخالد
٢٤ ـ الداعية المجاهد شيخ الإسلام ابن تيمية	د . محمد عبد الحليم العدوي ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٢ هـ
٢٥ ـ دراسة في السيرة	د . عماد الدين خليل ، ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت ، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٥ م
٢٦ ـ دلائل النبوة	البيهقي ، ط دار النصر ـ القاهرة ، ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م

اسم الكتاب	المؤلف
٢٧ ـ دين ودولة	د . علي جريشة ، ط دار الوفاء ـ المنصورة ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م
٢٨ ـ ديوان الإمام الشافعي	الإمام الشافعي ، ط المكتبة الشعبية ـ بيروت ، بدون تاريخ
٢٩ ـ رجال الفكر والدعوة في الإسلام ـ الجزء الثاني	أبو الحسن الندوي ، ط دار القلم ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م
٣٠ ـ الرحيق المختوم	صفي الرحمن المباركفوري ، دار القلم ـ بيروت ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م
٣١ ـ سُبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد	الإمام الصالحي الشامي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م
٣٢ ـ سمير المؤمنين	الشيخ محمد الحجار ، مكتبة دار الدعوة ، سورية ـ حلب ، ١٤٠٣ هـ
٣٣ ـ السياسة الشرعية	ابن تيمية ، الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م
٣٤ ـ سير أعلام النبلاء	الذهبي ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م

اسم الكتاب	المؤلف
٣٥ ـ سيرة ابن هشام	ابن هشام ، المطبعة الفنية للطبع والنشر ـ القاهرة ، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ، بدون تاريخ
٣٦ ـ السيرة الحلبية	للإمام علي برهان الدين الحلبي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت
٣٧ ـ شرح الكرماني على صحيح البخاري	للكرماني
٣٨ ـ شرح النووي على صحيح مسلم	للإمام النووي
٣٩ ـ الشورى المفترى عليها	الأمين الحاج محمد أحمد ، ط دار المطبوعات الحديثة ـ جدة ، ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م
٤٠ ـ صحيح البخاري مع الفتح	للإمام البخاري ، دار الفكر ، تحقيق عبد العزيز بن باز
٤١ ـ صحيح الجامع الصغير	الألباني ، ط المكتب الإسلامي ـ بيروت ، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م
٤٢ ـ صحيح مسلم بشرح النووي	للإمام مسلم ، ط دار البيان للتراث ـ القاهرة ، بدون تاريخ
٤٣ ـ صفحات في أدب الرأي	الشيخ محمد عوامة ، ط دار القبلة ـ جدة ، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م
٤٤ ـ صور من حياة التابعين	د . محمد رأفت الباشا

اسم الكتاب	المؤلف
٤٥ ـ الطبقات الكبرى	ابن سعد ، ط دار صادر ـ بيروت ، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م
٤٦ ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية	ابن قيم الجوزية ، ط مطبعة المدني ـ القاهرة ، تحقيق د . محمد جميل غازي
٤٧ ـ العقيدة النسفية	الإمام عمر النسفي ، ط شركة صحافة عثمانية ، ١٣٠٨ هـ ، وهي مطبوعة في أول حاشية العقائد لرمضان أفندي
٤٨ ـ علم أصول الفقه	عبد الوهاب خلاف ، مكتبة الصفحات الذهبية ـ الرياض ، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٥ م
٤٩ ـ علم العروض القافية	د . عبد العزيز عتيق ، ط دار النهضة العربية ـ بيروت ، ١٩٦٧ م
٥٠ ـ غريب الحديث	ابن الجوزي ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م
٥١ ـ غياث الأمم في التياث الظلم	إمام الحرمين الجويني ، ط دار الدعوة ـ الاسكندرية ، ١٩٧٩ م

اسم الكتاب	المؤلف
٥٢ ـ فتح الباري على صحيح البخاري	الحافظ ابن حجر العسقلاني ، ط دار الفكر ، تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز
٥٣ ـ الفوائد	ابن القيم ، الناشر : المكتبة القيمة ، الطبعة الأولى ـ ١٤٠٠ هـ
٥٤ ـ في ظلال القرآن	سيد قطب ، دار الشروق ـ بيروت ، الطبعة الشرعية الحادية عشرة ، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م
٥٥ ـ قوارب النجاة في حياة الدعاة	د . فتحي يكن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م
٥٦ ـ القواعد الفقهية	علي أحمد الندوي ، ط دار القلم ـ دمشق ، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٠ م
٥٧ ـ كيف السبيل إلى وحدة الأمة الإسلامية	أبو الأعلى المودودي
٥٨ ـ كيف نربي أولادنا على الشورى	للأستاذ خالد أحمد الشنتوت
٥٩ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟	أبو الحسن الندوي ، مطبعة الفيصل ، الاتحاد الإسلامي العالمي ، الطبعة الرابعة
٦٠ ـ مبادئ الإسلام	أبو الأعلى المودودي ، ط الدار السعودية ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م

اسم الكتاب	المؤلف
٦١ ـ مجمع الزوائد	الهيثمي ، مكتبة المعارف ـ بيروت ، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م
٦٢ ـ مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا	الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ، ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م
٦٣ ـ المحرر الوجيز	ابن عطية الأندلسي ، ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م
٦٤ ـ مدارج السالكين	ابن القيم ، ط دار الكتب العلمية ـ بيروت
٦٥ ـ مع الله	محمد الغزالي ، ط دار القلم ـ دمشق ، ت ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م
٦٦ ـ معاني القرآن	الفراء ، ط عالم الكتب ـ بيروت ، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٩٣ م
٦٧ ـ معجم البلدان	ياقوت الحموي ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، ١٣٩٩ م ـ ١٩٧٩ م
٦٨ ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث	نظمه لفيف من المستشرقين ، مطبعة بريل في مدينة ليدن ١٩٤٣ م
٦٩ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم	محمد فؤاد عبد الباقي ، مؤسسة مناهل العرفان ـ بيروت

اسم الكتاب	المؤلف
٧٠ ـ المعجم الوسيط	مطابع دار المعارف ، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م
٧١ ـ مقال في مجلة الأمة القطرية بعنوان : من سير الرجال	د . حسان حتحوت
٧٢ ـ مقدمة ابن خلدون	ابن خلدون ، ط مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت ، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م
٧٣ ـ مقومات المجتمع المسلم	د . الدسوقي ، مكتبة فرقد الخاني ـ الرياض ، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م
٧٤ ـ المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي	الحافظ شمس الدين السخاوي ، تحقيق د . محمد عيد الخطراوي ، مكتبة دار التراث ، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م
٧٥ ـ نظرات إسلامية	د . معروف الدواليبي ، ط دار الكتاب الجديد ـ بيروت ، ١٩٧٩ .
٧٦ ـ نظرات في مسيرة العمل الإسلامي	عمر عبيد حسنة
٧٧ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر	ابن الأثير ، ط المكتبة العلمية ـ بيروت ، تحقيق محمود الطناجي
٧٨ ـ نور اليقين في سيرة سيد المرسلين	محمد الخضري ، تحقيق عدنان مولود المغربي ـ مكتبة الغزالي ، دمشق ، ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م

المحتوى

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الفصل الأول	١١
نماذج من الاخوة الدعوية في عهد النبي ﷺ	١١
خديجة رضي الله عنها	١١
عثمان بن مظعون رضي الله عنه	١٣
أبو بكر رضي الله عنه	١٤
عمر بن الخطاب رضي الله عنه	١٧
أم سليم رضي الله عنها	١٨
زيد بن الدثنة	١٩
أبو دجانة	٢٠
رسول الله ﷺ يبحث عن مكان آمن للصحابة كي يهاجروا إليه	٢١
عثمان بن عفان رضي الله عنه	٢٢
أبو ذر رضي الله عنه	٢٤
سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما	٢٦
الصحابة في غزوة تبوك	٢٧
أبو خيثمة رضي الله عنه	٣١
الفصل الثاني	٣٤
نماذج من الأخوة الدعوية في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم رضي الله عنهم	٣٤

الموضوع	الصفحة
عبد الله بن حذافة رضي الله عنه	٣٤
خالد بن الوليد رضي الله عنه	٣٦
أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه	٣٨
عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه	٣٩
الحسن البصري رحمه الله	٤١
أحمد بن حنبل رحمه الله	٤١
عمر بن عبد العزيز رحمه الله	٤٤
الإمام الشافعي رحمه الله	٤٦
الشافعي ومحمد بن الحكم رحمهما الله	٤٧
صلاح الدين الأيوبي رحمه الله	٤٩
الإمام النووي رحمه الله	٥١
ابن تيمية رحمه الله	٥٣
العز بن عبد السلام رحمه الله	٥٦
حسن البنا رحمه الله	٥٧
الفصل الثالث	٦٦
الأخوة الدعوية تثير قضية أهل الحل والعقد	٦٦
تصوير الواقع وحاجة الأمة للقيادة المؤهلة	٦٨
سعي الأمة لاختيار قيادتها واجب شرعي وحق أخوي	٧٥
حقوق الأمة على تلك القيادة المؤهلة	٨٧
الخاتمة	٩٧
المصادر والمراجع	٩٩